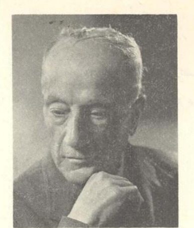


حبيب الخوري

مذهبي في الصرف والنحو

بقلم حبيب الخوري

* * *

بنيت مقالة سابقة لي في القراءة عموما ، والقراءة العربية خصوصا ــ على المبدأ القائل « الناس انما يكتبون ليقرأوا أو يقراون ليفهموا ، ولكننا نحن ينبغي ان نفهم لكي نقرأ » . ولقد صحت مني العزيمة ان أبني كلمتي هذه على المبدأ القائل « الناس انما يأخذون او يتعلمون القواعد من اللغة ، أما نحن فنأخذ او نتعلم اللغة من القواعد » وهذا يعني ان ما سرنا عليه منذ القدم حتى الان ، لم يعد اقامة الوزن للصرف والنحو ، أي ــ لصنعة اللغة العربية ــ وليس للغة نفسها .

وانني اصرح مخلصا وجازما ان هذين المبدأين ، مضافا اليهما صعوبة ــ الكتابة ــ (التركيب والانشاء) لنا فيهما عقبتان كأداوان ، تشلان نجاحنا في تعليم اللغة العربية ، وفي افساح المجال لاكثر من ٧٪ من ابناء الشعوب العربية ، العامة منهم والخاصة . وهي النسبة التي يسعنا ان نقول انهم تعلموها حقا ، في حين ان البديهي والمتوقع (والواقع عند غيرنا) ان يكثر الملمون بها من العامة والشعب المامة موجزة بسيطة تسد لهم حاجاتهم في شتى نواحيها . ومن الخاصة من جامعيين ومتخصصين وعلماء ائمة ، المامة واسعة الافق تسد حاجاتهم وطموحهم من شتى النواحي .

وانني لعلى مثل اليقين ، ان هذه الحقيقة تدركها وتشعر بها طائفة من ادبائنا وعلمائنا ، على ان كلهم او جلهم يخشون ان يعلقوا الجرس على رقبة الهرة . وفي بدء القول لا ندحة لي عن ابداء ملاحظتين ، او بالحرى عرض فكرتين :

١ ــ ان لهذا الكون قانونا ، ولهذه الحياة سنة ، فاذا امتثلنا لذلك القانون وسايرنا تلك السنة ، كنا نحن ولغتنا بخير . ومن ابرز عناصر ذلك القانون ــ التغيير والتحول ــ وليس ثمة قوة في السماوات والارضين تعصمنا من حاعلية ذلك القانون او تجنبنا اياه .

٢ ــ اننا نعيش في اوقات لم تعهدها امتنا العربية منذ فجر تاريخها حتى الان ، ولنا امكانات وفرص ووسائل لم يحلم بها الاجداد والاسلاف ، ونظرتنا الى الامور ، ونحن في النصف الثاني من القرن العشرين ، الذي بذت حضارته حضارات القرون الخوالي باسرها ، لا تعدم تفوقا على نظرة الناس في زمن ابي الاسود والخليل وسيبويه والكسائي والزمخشري وابن هشام ، رغم عظيم احترامنا لهم وتقديرنا لاعمالهم العظيمة . فهيا نشخص الداء ونصف الدواء ، والبدار البدار الى الشفاء .

غير خاف انه منذ ان عرف امر اللغة السنسكريتية ، هب ابطال البحث والتنقيب في العالم المتمدين يولون موضوع ــ علم اللغة ــ عناياتهم الكبرى ، وقد بلغ شأوا ممتازا من التقدم ، ولا سيما في اخريات القرن التاسع عشر ، حينما اخذ العلماء في جعل البحث اللغوي يخضع لمناهج البحث العلمي ويتجه الى الاهداف التي ترمي اليها العلوم . بل وفي جعل الغاية الاساسية من بحوثهم الوصول الى كشف القوانين الخاضعة لها الظواهر اللغوية، وتنقيتها من المسائل الفلسفية القديمة المتأثرة بالميتافيزكية (ما وراء الطبيعة) وبفضل تلك الجهود الجبارة التي قام بها علماء اللغات العالميون اتضحت معالم الحدود والمناهج لكل فرع من فروع ــ علم اللغة ــ وارتقت اساليب البحث ارتقاء رائعا ، واخضعت العلوم اللغوية للقوانين العلمية ، شأنها في ذلك شأن كل علم من العلوم مثل الفلك والطبيعة الخ . وقد بدا انه ليس في استطاعة اي فرد او جماعة ، ان توقف تطور اية لغة الا على الطريقة التي يرسمها ــ علم اللغة ــ . ومن اكبر بواعث الغبطة انه توجد عندنا بضعة علماء اعلام ، قطعوا مرحلة توشك عما قريب ان تضع علوم لغتنا في محلها وتسير بها كما يسير باقي علماء اللغة في العالم . فلنترقب تطورات كبرى للغتنا العظيمة تنقلها من عظمة الى عظمة ان شاء الله .

اولا ــ علما الصرف والنحو (القواعد) .

لست انوي الانتقاص مما لهذين العلمين من قيمة ، انما اقصد الى وضع القواعد في محلها ، ووضع عباد القواعد عند حدهم . اننا اذا نظرنا اليهما كصنعة كانت الفائدة منهما العصمة من الوقوع في الخطأ في تحدثنا وقراءتنا وكتابتنا ، واذا نظرنا اليهما كعلم توافرت لدينا فوائد عدة مثل ترويض ذهن الطالب وجلاء فكره وارهاف حسه

وايقافه على الاحكام الكلية المستخرجة من استقراء اللغة ومفرداتها وجملها .

ولذلك دعا الاوربيون القواعد ـ منطق اللغة ـ وهذا الاستقراء للغة ينسجم مع قول بعض المشايخ القدامى ، ان النحو ـ علم ـ نضج وما احترق اي انك اذا تأملت في اي تركيب كلامي وجدته ينطبق على الاحكام الكلية المتضمنة في ذلك العلم . اما من جهة العصمة من الوقوع في الخطأ فهي على الاغلب نظرية اكثر منها عملية . واما من جهة ترويض الذهن وما الى ذلك من فوائد فخليق بابناء القرن العشرين ، قرن الطائرة والتلفزة وارتياد العوالم الفضائية ان يرضوا عقولهم في العلوم الطبيعية والعلوم اللغوية الادبية ، فتكون منفعتنا مزدوجة اي تصبح رياضة رائعة وتفهما راسخا للعجائب والمعجزات التي يأتينا بها ذلك العقل الجبار .

وليس بخاف ان هذين العلمين استخرجا من كلام العرب بالاستقراء وتتبع الامور ومقابلة النظائر ، وكلمة ـ استقرار ـ تعني اكثر من استنتاج واستنباط ، وتطورا من عهد ابي الاسود ، مارين بعهود كثيرة تبلورت فيها المدارس النحوية الاربع وهي البصرية والكوفية والبغدادية والاندلسية ، وبالغين الذروة في عهد الزمخشري وابن هشام ، وهما خير من كتب في هذين العلمين ، وكتاباهما « المفصل » « والمغنى » خير ما كتب فيهما . وقد يكون جبر ضومط استاذ العربية الاسبق في جامعة بيروت الامريكية خير من قفى على اثرهما بمد الحقبة الطويلة التي انقضت بينهما ، وكتابه « الخواطر العراب » خير ما كتب في القواعد في عصورنا الاخيرة على انه حاجة يسيرة الى تنسيق وضم اجزاء بعض ابوابه الى بعضها البعض . وله كتاب اسمه « فك التقليد » وضعه بالاشتراك مع بولس الخولي رئيس دائرة التربية والتعليم بالجامعة الاميركية ببيروت وهو خير ما وضع في علم الصرف وحده . ولعل كتاب فصل الخطاب لليازجي ادق ما كتبه المحدثون في القواعد الابتدائية الاساسية حتى لم يتمالك بعض العلماء ان قالوا عنه انه شبه معجزة وليس تعليمه من الهنات الهينات بل يحتاج الى مدرسين اكفياء ـ لا اكفاء بل يحتاج الى معلمين اكفياء لا اكفاء وهي خطأ وقد درسناه على استاذنا العظيم نخله زريق وبقيت حقائقه خالدة فينا دون المطولات من امثال « الخضري » « والصبان » اللذين كنا نعتمدهما تحت اشرافه ، دع عنك استظهار الفية ابن مالك وارجوزة اليازجي مع شرحهما وشواهدهما .

ولقد بقي الصرف مندرجا في النحو حتى افرزه وميزه ابو عثمان المازني المتوفي سنة ٢٤٩ هـ في كتاب « التصريف » . وليس بخاف ان ابن سيده الاندلسي المتوفي سنة ٤٥٨ هـ ، عرض في معجمه « المحكم » لاشتقاقات الكلم وتصاريفها ، لان « علم اللغة متمم لعلم الصرف » الذي استخرجت احكامه من استقراء وتتبع مفردات وجمل لغة العرب . واذن فاللغة والصرف الفان متلازمان وصنوان لا يفترقان . وهذه مناسبة اغتنمها لاقول : « انني تعلمت الصرف كله اسوة بما كان ولا يزال جاريا في لبنان وسوريا واستاذنا النابغة زريق في الكلية الانكليزية بالقدس لم يحد عن ذلك قيد شعرة . ذلك لان الصرف يبحث في المفردات والنحو في المركبات ، فكان طبيعيا ولزاما ان تهيأ الحجارة وتدق على اشكال متنوعة قبل بنائها . ولست انكر ان الصرف اهم من النحو على قدر ما تكون اللغة اهم من الصرف والنحو المستنبطين بالاستقراء منها ، وعلى وجود اعجوبة العربية عموما ، والقواعد خصوصا ، الا وهي « الاشتقاق » الكائن بين ثنايا علم الصرف . وقد سار لبنان في مدارسه على هذا النهج . ولبنان لعب الدور الاكبر او على الاقل الاسبق في البلدان العربية في النهضة اللغوية والادبية . وقد اهمل عندنا تعليم الصرف كوحدة مستقلة من الربع الثاني من القرن العشرين حتى الان الى درجة مستهجنة . وربما كان سبب الاهمال صعوبة علم الصرف واحتواءه على الاشتقاق والمشتقات التي هي من امجاد اللغة . وحينما داهمتنا عصور الانحطاط تخاذلنا واستخذينا امام ايفاء الاشتقاق ومزيدات الفعل العشر والمعاني الخطيرة والعديدة لكل فريد منها حق الاحكام والاتقان . وقد يكون لبابي الادغام والاعلال وباب الجمع وشروطه ، والجمع المكسر الذي تربو اوزانه وصيغه على الثلاثين . ولا ريب عندي ان هذه الجموع لم تكن صيغها واوزانها على الكثرة التي نشهدها الان . واني اقحم معها مضى « المصدر الثلاثي الاصلي » الذي اربت اوزانه على الثلاثين ايضا . وقد تكون المناسبة سانحة للقول : ان الحركة الصرفية او التصريفية خالدة ، على حين ان الحركة النحوية او الاعرابية قد لا يكتب لها الخلود ، او على الاقل يندحر التشدد المرهق المضني في تلك الحركة الاعرابية التي لها العديد من التخريجات والتأويلات المحيرة والمفشة . يؤثر عن الزميل الصديق والاديب الكبير المرحوم اسعاف النشاشيبي ، وهو من نعلم في حرصه المتناهي المخلص على لغة الضاد ، ونزعته القليلة الى القيم ، انه بعث برسالة دورية للمعلمين يرغب اليهم فيها ان لا يتشددوا في الحركة الاعرابية . وهو الذي سمعته بأم اذني يقول في مؤتمر مديري المدارس الاميرية وغير الاميرية : ان شرح قصيدة شرحا وافيا قد يفضل في فائدته كتابا في القواعد . وهذا كان مذهب البصريين والكوفيين في بادىء الامر ، وهو مذهب بعض طلائع النهضة اللغوية المصرية مثل الاستاذ المرصفي وامثاله . وياليت الذين يتولون تدريس المحفوظات ينتبهون الى هذه النقطة ويوفونها حقها ، فان في ذلك عونا لتعليم القواعد . لقد شعرت طائفة من كبار الكتاب والشعراء ان الاعظم من طلبة المدارس الثانوية يثقل عليهم موضوع القواعد ، وتاخذهم شدة ارهاقه . وجاهرت طائفة كبرى

من العلماء المحققين في كل عصر بقلة جدواها وغنائها ، وهي على ما هي عليه من اساليب التدريس ولم يتورعوا ان صرحوا : « ان القواعد انما تعلم كيفية العمل لا العمل نفسه » . وفي طليعة هؤلاء فيلسوف العرب الاجتماعي واحد عظماء مفكريهم واحد اثنين من مبتكريهم (الثاني ابو العلاء) . فلقد جاء في مقدمته العظيمة : — ان العلم بقواعد الاعراب انما هو علم بكيفية العمل ، لا العمل نفسه، ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين بتلك القواعد اذا سئل في كتابة سطرين الى اخيه او ذي مودته او شكوى ظلامة او قصد من قصوده اخطأ فيها عن الصواب واكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على اساليب الكلام العربي . وكذا نجد كثيرا ممن يحسن الملكة ويجيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو لا يحسن الاعراب الفاعل من المفعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئا من قوانين صناعة العربية . فمن هذا تعلم ان تلك الملكة هي غير صناعة العربية وانها ستغنيه عنها بالجملة » . ولست ارى هنا معدى لي عن التحفظ والقول ان كلام مفكر العرب الاعظم قد لا ينطبق على النحو نفسه ، بل على الاسلوب الذي كان ولا يزال يعلم بموجبه ، ولذا كان لزاما علينا ان نعالج الاسلوب في دقة وايجاز .

ثانيا — في اسلوب تعليم القواعد .

١ — مر بنا اننا كنا ولا نزال نأخذ ونتعلم اللغة من القواعد وهذا ضلال مبين . يعلم الله ان ابنائي الاجلاء في الكلية العربية وطلبة الكليات والمعاهد الثانوية سمعوا مني عكس ذلك وهو اننا نأخذ القواعد من اللغة سمعوها عشرات من المرات حتى لقد كان الملل يأخذهم . وانني لعلى مثل اليقين من ان خير اسلوب لتعليم القواعد هو الاسلوب الاستقرائي الذي سار عليه واضعو علمي الصرف والنحو العظماء . فان وضع القانون او الحكم الكلي لم يسبق لديهم ابدا تتبع الامور واستقراء جمل عديدة من كلام العرب واستنباط الحقيقة بل كان دائما يتبع الاستقراء فلم يضعوا قاعدة او حكما كليا الا بعد فحص جمل عديدة وموازنة النظائر فيها ومن ثم اعطاء الحكم الكلي او القانوني الصرفي والنحوي. وان اللوح الاسود ودفاتر التمرين كان لهما المنزلة العليا — واكاد اقول الوحيدة — عندي حينما كنت ادرس القواعد في الكلية العربية وحينما كنت اتولى تعهدها في اثناء التفتيش .

ان ميزان العمل — البارومتر — في تدريس القواعد هو الناحية المكتوبة على دفاتر التمرين التي كنت أصر في عناد ان يكثروا منه وان يوضع المثل او النقطة المطلوبة في جملة صحيحة طالت او قصرت . ان السنة الطبيعية هي في ان يستخرج المجهول من المعلوم والصعب من السهل والبعيد من القريب ولقد قيل : ان نصف المعرفة مع مضاعف الاستعمال خير من مضاعفة المعرفة مع نصف الاستعمال

ب — ينبغي ان لا يعلم القواعد الرسمية في القسم الابتدائي من التعليم بل نكتفي ونحن ندرس القراءة والمحفوظات ولا سيما مباديء الانشاء بالملاحظات الاساسية السانحة والمعلم اللبق في مقدوره ان يغدق على تلاميذه فيضا من الفوائد العلمية التي ترسخ في اذهانهم دون ريب اذا تحدث اليهم داخل الصف وخارجه بلغة صحيحة سهلة ممتنعة ، وفي وسعه ان يعطي النقاط العامة اللازمة الجوهرية من القواعدالتي تعرض للطالب وهو يعالجالقراءة والمحفوظات والانشاء . وتلقين النقط الصرفية والنحوية عند حاجة التلميذ اليها واستعمالها يتيح له الفرصة لتذوقها واستمرائها فتصبح قطعة من قلبه وفكره . وهذا ما تجري عليه الامم الراقية في تدريس قواعدها ولا سيما الامة الالمانية التي تعلم شطرا غير قليل من قواعدها في تدريس الانشاء .

ج — ينبغي ان لا ندرس كل باب من ابواب علمي الصرف والنحو دفعة واحدة . ان في ذلك عنتا وارهاقا للطالب واخفاقا في نيل الفائدة المتوخاة يحسن جدا ان نعلم القواعد على مراحل لا تقل عن اربع ، جاعلين المرحلة الاخيرة تستوعب وتستوفي كل النقاط التي مرتبالطالب في مزيد من الايجاز . والتعليم على مراحل يدعى عند الغربيين اليوم التعليم بالدورات والسواد الاعظم منهم يتبعونه الان ويتفاخرون به ، غير عالمين ان ابن خلدون سبقهم الى ذلك بمئات السنين وقد يكون خير كتاب من هذه الوجهة كتاب الشرتوني لولا ما فيه من مأخذين خطيرين الاول : طريقة السؤال والجواب . والثاني : التعليقات والحواشي التي يأتي بها لا يخرج معظمها من شواذ وشوارد .

وقد نحسن صنعا اذا جعلنا كتابي « القواعد الوافية » و « النحو الواضح » المشتهر بامثلته الغزيرة والطريفة كانهما كتاب واحد لتعليمهما معا .

كما ينبغي ان نيسر التحديدات ونوضح الموجزات في قواعدنا الى اقصى درجة ممكنة من التيسير . فهنالك حدود تكاد تكون الغازا او شبه الغاز وقد لعبت الفلسفة القديمة المتأثرة بالميتافيزيكية — ما وراء الطبيعة — دورا ظاهر المعالم من هذه الجهة . ولست انكر انني لحد الان لا اقوى تماما على تفهم المراد بتعريف المصدر الاصلي الثلاثي بانه « اسم الحدث الجاري » . ومثله مئات من الحدود الفلسفية الموجزة مثل تعريف اسم الفاعل بانه « ما اشتق لما قام به الفعل على معنى الحدوث » وتعريف المبتدأ بانه « الاسم المجرد عن العوامل اللفظية للاسناد » والمفعول المطلق بانه « ما فعله الفاعل » والتمييز بانه « ما يبين ابهام ذات واجمال نسبة » الخ الخ .

كان الله في عون الطلبة ومعظم المعلمين على هذه التحديدات المقتضبة والموجزات التي يغمرها الغموض .

ومما زاد هذه الموجزات القواعدية تعقيدا نظمها شعرا، فقد نظمها اكثر من واحد من بين القدامى من اشهرهم — ابن مالك — في الفيته ومن المحدثين في عصرنا — اليازجي — . وقد كان حظي من هذا الايجاز والنظم ان استظهرت الفية ابن مالك كلها وارجوزة اليازجي كلها مع الشواهد الموجودة فيهما .

ثالثا — وجوب اختصار كل باب من ابواب الصرف والنحو الى عشرة ، دون التعرض للاصول والجوهر مطلقا وحذف طائفة من ابواب كل منهما . اما الاختصار الى العشر فهو امكن من الممكن لان النقاط التي تختصر هي من الشوارد والشواذ ، وليست من الاحكام الكلية الجوهرية .

واليك بضعة من الامثلة :

١ — مزيدات الافعال : الاكتفاء بالمعنى الواحد الاشهر لكل مزيد من المزيدات العشرة التي تتراوح معاني كل منها بين اربعة وستةعلى الاقل ،والاستغناء عنمزيدات الرباعي بالكلية .

٢ — المصدر الاصلي الثلاثي : الاكتفاء بعشرة من اوزانه التي قد تبلغ الاربعين ولا ريب ان الشعراء على الاغلب لعبوا دورا غير مشكور في ايصاله الى هذا العدد مثلما اوصلوا الى العدد نفسه اوزان او صيغ الجموع المكسرة بفضل جهود اكثرهم غير الملهمة .

٢ — تنسيق المصادر الاربعة والصفات المشتقة من الفعل مع تناولها بشيء من التقليل .

٤ — اختصار الجموع المكسرة الى عشرة بدلا مما يقرب من الاربعين ، وافساح المجال للجمع السالم مذكرا ومؤنثا بعد ازالة معظم الشروط او القيود الخاصة بكل منهما .

٥ —ادماج باب الفاعل بباب المبدأ وجعلهما باباواحدا يكون عنوانه « المسند والمسند اليه » في اصلاح البيانيين او « الموضوع والمحمول» في اصطلاح المناطقة ، اوالمتحدث عنه والمتحدث به . »

وقد قدمت هذا الاقتراح الى لجنة التيسير التي الفها وزير التربية المصري بهي الدين بركات بعد ان طلب الي وانا في ادارة المعارف الفلسطينية ان اعلق التقرير الذي وضعته تلك اللجنة . كذلك ينبغي الاستغناء عن مسوغات الابتداء بالنكرة الكثيرة .

اما الحذف فينبغي ان يتناول بابى الادغام والاعلال والاكتفاء بتعليمهما عن طريق التصريف مع الضمائر والتصريف عن المزيدات شفويا وخطيا. وبذلك نضع زوبعة هذين البابين في فنجان .

ملاحظة —يوجد كتيب مفصل لكل هذه التصاريف في مطبعة دير اللاتين بالقدس في مدارسه . وقد اصابوا كل الاصابة .

وينبغي حذف الابواب الاتية :

« التنازع » والاستغال » « وموانع الصرف » « وما ولا الحجازيتين » . وشبيه بالاختصار الاكتفاء بثلاثة الى خمسة وجوه لحرف — حتى — الذي بلغت تخريجاته وانواعه ما يربو على العشرين ، حتى يتمالك الفراء انقال:

« اموت وفي قلبي شيء من حتى » .

ويا ليتنا نكتفي بتعليم قانون فتح همزة ان الفلسفي وما عداه الكسر لها ولقد مات سيبويه وبقي في قلبه من فتحها وكسرها اشياء . ونكتفي من — الفاء — بالعاطفية والسببية . وقد مات الكسائي وفي صدره حزازات من شتى معانيها .ومن — الواو — بالعاطفية وقد ماتاليزيدي وفي راسه صداع واي صداع من كثرة معانيها . وليت الاختصار يتناول حروف الجر ، والقسم والعطف ، والاستفهام والجواب والنفي والردع والاستفتاح، والتنبيه والتحضير والشرط والتفصيل والمصدر والتفسير والمفاجأة والاستقبال والتوقع واللامات وحروف الزيادة . ولا سيما — ما — التي تزداد بعد — ان — اذا — كيف — متى — اين — حيث — اي الشرطيات . وبعد غير —بين رب — الحروف المشبهة بالفعل — عن — كي — دع عنك — ما — الاسمية وشتى معانيها فلتساعدنا السماوات على — ما — الحرفية والاسمية .

كلمة الختام: لست اجد لي منصرفا وقد كدت انتهي من القول عن ابداء ملاحظات ثلاث .

١ — من اغرب امور هذه القواعد انها اصطدمت منذ ان وضعت ولا تنفك تصطدم بحقيقة خطيرة هيان كثيرين من الكتاب والادباء والشعراء من العرب وغيرهم لان لهم قياد العربية من غير ان يتعلموا قاعدة واحدة . بل اغرب من ذلك ان الذين درسوها في المطلوبات بحذافيرها، كانوا على الاغلب يعملون بها انقيادا لما تلهمهم اياه السليقة التي هذبتها المطالعة والاستظهار وصقلها المران والمزاولة تحدثا وكتابة اكثر جدا مماينقادون اليهابهدى من القواعد نفسها. وما ذلك الا لانهم تعلموا اللغة من اللغة بفضل الاستقراء واستخراج الحقائق من تتبع الامور وموازنة النظائر على ما مر بنا . وانني اجتزي بثلاثة من القدامى والمحدثين من بين المئات من امثال هؤلاء وهم — سرى الرفاء — وقد ابدع في الشعر من زمن سيف الدولة وهو يرفؤ ويطرزفي دكانه والبارودي الذي دعى المتنبي ، واديب اسحق الذي مهدت كتاباته منها كتاب الدرر للثورة العرابية .

وتراودني النفس ان اتبع بهؤلاء الثلاثة المشهورين ثلاثة اخرين لا اشراكا لهؤلاء في شهرة اولئك ، بل تاييدا للمبدا الذي نحن نعالجه . اذكر رجلا جمعني به رحيلنا عن الديار في فندق حجار في مدينة سوق الغرب اللبنانية وهو رشيد الحاج ابراهيم من اسرة عربية مرموقة بحيفا. حدثني الصديق — والحديث ذو شجون — انه تلقىالعربية فيمدرسة اجنبيةفي حيفا، ولما داهمنا الاحتلال البريطاني وملحقاته هب للكفاح ولكنه لم يقو على التعبير عما في

لا تجرح الازهار

لا تجرح الازهار
لا تفزع الاطيار
لا تقذف الثمار بالحجار
لا تلعن الغيوم والامطار
عالمنا ، بدونها ينهار
يصيبه الدمار !
فهذه الانهار
تصنعها الامطار
وهذه الازهار والثمار
تصنعها الامطار والانهار
وهذه الاطيار
ملائك صغار
تحب ان تعيش قرب النهر والازهار
فهل ترى يا صاحبي
عالمنا ؟ في وضح النهار !

حلب — صباح الدين كريدي

نفسه تحدثا وكتابة ، فعمل بنصيحة من ذوي الاختصاص والتحقيق وطالع العشرات من الكتب مما هو جزل وحسن الديباجة وعليه الحركات الكافية فحدثت المعجزة وحل لسانه وقلمه من العقال فخطب وكتب المئات من الخطب والمقالات دفاعا عن الوطن المهدد . وقد اراني مقالةمطولة فرغ منها في الفندق فاعجبت بها ايما اعجاب ..

وثمة شاب عصامي يبيع الكتب والصحف خارج باب العامود مباشرة تعلم خارج المدرسة من الاولاد وفقائه حروف الهجاء وتركيب المقاطع والكلمات وتابع بنفسه جهوده حتى اصبح الان يتذوق الادب ويستمرئه ويكتب مقالات موجزة في بعض الصحف والمجلات وهو لم يدخل مدرسة ولم يسمع بالقواعد .

وابني الحبيب شكري خريج جامعة بيروت الاميركية طبعثلاثة كتب متوسطة الحجم قبل وفاته تاليفا وترجمة . وهو لم يحب القواعد حتى ان اولي الامر في تلك الجامعة قالوا لي لا فائدة من الضغط عليه لتعلمها . على انه عاش بين الكتب وطالع المئات منها وكانت النتيجة ان كتب ايضا ما يربو على مئة وثمان وسبعين مقالة في مجلة « المياه الحية » التي كانت تصدر في القدس وهي تصدر الان بصيدا لرحيل مديرها اليها . وليسامحني القارىء اذا ذكرت ان له مقالة في « العلم والدين » جديرة بان تقرأ من على منابر المعابد ودور الندوة وتتمنى الصحف ان تفسح لها المجال بين اعمدتها .

٢ — ان من انجع مقومات السنتنا وتهذيب ملكاتنا — المطالعة — . وقد تشددت في أمرها كثيرا في المدارس الحكومية وغير الحكومية . وكان التلاميذ والطلاببطالعون في السنة المدرسية ما بين سبعة كتب الى سبعين من كتب الابراشي والكيلاني ومن روايات زيدان ومن اشهر روايات شكسبير المنقولة الى العربية نقلا مشهورا . وقد انجدتني الصحف الفلسطينية في حملاتي في سبيل المطالعة وليس بخاف ما ذكره طه حسين في احد مؤلفاته من ان الذي قوم السنة الطلاب الثانويين في مصر ليس القواعد بل الصحف . ويسعدني كثيرا ان ارى محطات الاذاعة العربية وسواها تذيع يوميا واكثر من مرة اقوالا عربية قد تكون من اقوى العوامل لترقية اللغة .

٣ — التحدث باللغة الصحيحة في المدرسة. ان عددا غير قليل من المدرسين في المدارس الحكومية وغير الحكومية تتملكهم نزعة الى التحدث الى الطلبة باللغة غير اللغة التي يعلمونها ويدعون اليها . وهذا العمر الحق ظلم صارخ للغة والطلاب . لان الطالب يحاكي استاذه البطل في عينيه ويقلده اكثر من الكتب والخطب وغيرهما فما باله يعلم لغة ويتحدث بلغة اخرى .

طلب الاستاذ سليم كاتول في الكلية العربية حصة اخرى لموضوعه فالتفت الي الاخ الاستاذ احمد سامح الخالدي التفاتة كل معناها — ان اعطه انت ، ففعلت ولما علم طلبة الصف المنتهى تأثروا كثيرا وعزموا على الاحتجاج وملحقاته . فقطعت لهم عهدا على اني ساقدم لهم خير تعويض لحصة الانشاء التي انتزعت منهم ، وذلك بان اعطيهم شفويا في كل اسبوع موضوعين في يومي الجمعة والاحد . وكنا في الشهر الاخير نصطنع شبه — مدرسة المشائين — فنسير في ساحات الكلية الرحبة ونتجاذب اطراف الاحاديث ونتبادلها في شتى المواضيع وبخاصة المواضيع الانشائية . وقد حاولنا ان نهدف الى البلاغة في التعبير الى اقصى الحدود ولم نعتصم احيانا من الحذاقة والتنطس والتنطع وكانت النتيجة ان نجحكل منهم في امتحان المترك الفلسطيني الصعب في الانشاء والتلخيص نجاحا باهرا حتى ان الاخ الاستاذ السكاكيني اخذ نسخة لما كتب البعض اكبارا واعجابا فتحدث الاستاذ مع طلابه يصطنع المعجزات اللغوية .

٤ — لا ريب ان العرب في مشرقهم ومغربهم من علماء وادباء ومن اعضاء المجامع اللغوية والعلمية ووزارات التربية اذا اهتموا بتقديم اقتراحات بناءة يتوسم فيها الخير الى حكوماتهم وجدتها ملبية لاقتراحاتهم كل التلبية ولنا من ذلك فائدتان : ان الفرصة تتاح الى ٩٠ بالمائةلابناء الشعب والعامة الذين قد يبزغ من بينهم نجم يتألقمتفوقا على العلماء والائمة في تبسيط قواعد اللغة وكتابتها والانتقال بهامن مجد الى مجد ،بل قد يظهر منهم —دانتي— اخر يتقدم الامة كلها ويقودها الى لغة عربية سهلة ممتعة مخلدة تتسع للادب والعلم الحديثين على مرور الايام وكرها .

اريحا — الاردن — حبيب الخوري

من مسرحية غادة

•

يسير الجيش الظافر في ساحة المدينة بعرض عسكري . وقف في احد الأزقة تميم ونايف ، يتحدثان وينظران الى جثث القتلى على الارض .

•

عدنان مردم بك

دمشق



تميم :

أسمعت عربدة القوي   وصوته المتوعدا
وشهدت مصرع من قضى   دون الحمى مستشهدا
في كل رابية دم   يجري ويعصف مزبدا
وبكل ركن كنت للاحزان   تبصر مشهدا
وبكل ربع مسرح   للظلم طال مشيدا
كنا به المأساة رتلها   العذاب ورددا

نايف :

أوكنت تعجب من قوي   ان يصول معربدا
وجزعت ان تلقى الضعيف   على القفار مشردا
والحق لولا السيف لم   ينقع لذي ظمأ صدى
بالسيف كان الحق مرجوا   يهاب ويفتدى
عجز الضعيف عن الصراع   اذاقه غصص الردى
ما صح عرض فتى ولم   يقض الحياة منكدا
دون الحقوق دم كموج   اليم يعصف مزبدا

تميم :

ما كان اغنى الناس عن   ظلم وعن سفك الدماء
يتقاتلون على حقير   ليس فيه من غناء
وترى الرجال بخمرة   الاطماع تحلم بالدماء
حسبوا السعادة بالضراوة   تقتنى والاعتداء
فاذا بهم يتخبطون   بدامس دون اهتداء
شادوا على شلو البريء   قبابهم ملء الفضاء
وتلمسوا للهو اسبابا   بدمع الابرياء
عور المسيء مرده   يعزى لجهل او غباء
والشر مبعثه افتقار   في الصدور الى ولاء
ما ضر من زرع الفناء   لقطف اثمار الفناء
لو انه زرع الجميل   وراح يبني للبقاء

نايف :

عجبا أترجو من رجيم   ان يمد يد الاخاء
لا ترج يوما من فتى   خيرا على كر البقاء
قد يثمر الفصن المصوح   بالرعاية والولاء
ولكم تفجر مغدقا   حجر على طلل بماء
وترى الرجال تضيق   بالمعروف صدرا عن اداء

(تظهر غادة وتتقدم من تميم ونايف وهي تقول :)

أليس لليل فجر   وللشقاء نهايه
الى م نخبط وجه   الثرى بغير هدايه
ونقطع العمر سعيا   في حالك دون غايه
والناس مثل ذئاب   ضراوة وعمايه
هم حللوا وأباحوا   محرما لنكايه
خالوا الحروب سبيلا   لكل مجد وغايه
والمجد كان ذماما   ولم يكن بغوايه
حيث ابن آدم تلقى   يطل طيف الجنايه

تميم لها :

علام آتيت والاخطار   فاغرة باشداق
مناظر تستثير الدمع   من كبد وآماق
جليل ان يساق   مكبلا حر بأوثاق
ويؤذى الحر في اوطانه   من دون اشفاق

طبقة الفهماء

بقلم حسن الكرمي

من « العروة الوثقى » في لندن

* * *

عند الكلام عن تطور الفكر في الغرب قد يعود الباحث الى العصور الاغريقية وما تلاها من العصور الرومانية ، اذا اراد ان يمعن في تقصي حركة الفكر وتطوراتها واقتفائها الى مبادئها واصولها . ولكن كثيرا من الباحثين يرون ان الفكر في الغرب يبدأ في أصح حالاته من القرون الوسطى، ولذلك فانهم يضعون اساس البحث تطور الفكرة الدينية اولا وتطور الفلسفة الدينية المعروفة بالفلسفة الكلامية او بالفلسفة المدرسية Scholasticism كما يحب البعض ان يسميها ، ويتدرجون من عصور الايمان هذه في القرون الوسطى الى عصر النهضة ثم الى عصر العقل والى عصر النور الفكري وبعده الى عصر الفلسفات المثالية واخيرا الى عصرنا الحاضر المعروف بعصر التحليل الفلسفي . ويلاحظ من هذا التقسيم للادوار المختلفة التي مر بها الفكر الغربي ان في الامر عاملين مهمين كانا محور التطور ومدار الصراع الفكري كله ، وهما : ١ ـ الدين و ٢ ـ العقل . ففي القرون الوسطى المعروفة من الناحية الفكرية بقرون الايمان كان السلطان الديني فوق سلطان العقل . وكان العقل ، حتى ولو عن طريق المنطق الارسطي ، لا يجري الا الى مدى محدد كان يقف عنده ، وذلك حينما يخشى من تعارض العقل مع الكلام المقدس او مع السلطة الدينية القائمة. فالتقليد او السلطان الديني كان له القول الفصل ، ولم يكن للعقل حكم مع وجود هذا السلطان . وكان الانسان يصدق بالاشياء عن طريق الايمان الذي كان يقرب من ايمان العجائز. وأذكر مثالا على ذلك ان احد الواعظين من رجال الدين كان يعظ جماعة من الناس فقال لهم : ان الله خلق الملائكة ، وجعل كل ملك منها اصغر من النحلة وأكبر من (الدبور) . فاعترض على هذا القول احد الحاضرين قائلا ان هذا غير معقول ، وان الملك يجب ان يكون اكبر من النحلة وأصغر من الدبور ، أي بينهما . فما كان من الواعظ الا ان انتهره وقال : انت تنكر قدرة الله ؟ ولم يقتصر هذا على الشرق دون الغرب او الغرب دون الشرق .

هذا الخلاف بين السلطان الديني وسلطان العقل هو الذي أوجد الحركة الفكرية المعروفة بحركة تحكيم العقل Rationalism وحركة الفكر المتحرر . وهو خلاف قديم جدا لا يمكن ان يضع الانسان لمبدئه حدا ولا لمنتهاه . وقد أوردنا في مقال سابق اقوالا لعدد من كبار رجال الدين في الغرب اعربوا فيها عن بغضهم للعقل وعدم الايمان به. ولكننا اذا اردنا ان نجعل مبدأ لظهور حركة تحكيم العقل في الغرب فقد يكون من المقبول ان نجعل هذا المبدأ حول القرن الثاني عشر ، حينما قامت الحركة الاسمية Nominalism ضد الحركة الحقيقية Realism في فلسفة القرون الوسطى ، كما اشرنا الى ذلك من قبل . وقد يجوز ان نعتبر ان الشعور بوجود تعارض بين العقل والايمان بدأ في ذلك القرن ، ثم اتخذ شكلا محددا في القرن الثاني عشر في اسبانيا على يد الفيلسوف العربي ابن رشد (١١٢٦ ـ ١١٩٨) . فقد كان هذا الفيلسوف يقول من جملة اقواله الفلسفية ان الشيء قد يكون صحيحا فلسفيا وان لم يكن صحيحا دينيا ، أي ان الحقيقة على نوعين : فلسفية ودينية. والفلسفية اقرب الى الصحة ولا سيما في امور الدنيا. فالشيء يكون صحيحا وغير صحيح في وقت واحد. وقد احدثت هذه الفلسفة الرشدية اضطرابا عنيفا في الفكر ، ولا سيما بين رجال الدين الذين شعروا بخطر هذه البدعة اذا تركت تنتشر في أوروبا جميعها كما انتشرت في فرنسا وخصوصا في باريس . فانبرى لمناجزة الفلسفة الرشدية عدد من المفكرين دفاعا عن الدين ، وكان في مقدمتهم توما الاكويني المشهور (١٢٢٤ ـ ١٢٧٤) وكتب كتابه المعروف باسم Summa Theologica او «مختصر علم اللاهوت» ، فلأجل ان يقاوم الفلسفة الرشدية رأى انه لابد له من ايجاد فلسفة اخرى تناقضها ، فوضع تلك الفلسفة على اساس المنطق الارسطي. وكان قبل ذلك قد درس فلسفة ارسطو واستعان بعالم آخر هو البرتس ماكنس Albertus Magnus او البرت الكبير (١٢٠٦ ـ ١٢٨٠) في تنقيح مؤلفات أرسطو وتنقيتها مما قيل انه قد دخل عليها من التحريف على أيدي المترجمين العرب. وكان قد درس ايضا الفلسفة اليونانية القديمة والفلسفة اليهودية والعربية وغيرها من فلسفات رجال الدين الاولين في القرون الوسطى كفلسفة القديس اوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠).

بدأ توما الاكويني فلسفته الجديدة على أساسات جديدة . فاعتبر مثلا ان كل علم له غرضان : ١ ـ غرض مادي و ٢ ـ غرض شكلي. فالغرض الاول او المادي هو موضوع ذلك العلم ومادة البحث فيه ، والغرض الثاني او الشكلي هو الطريقة او الاسلوب لمعالجة موضوع ذلك العلم. فالفلسفة واللاهوت علمان متحدان في شيء واحد وهو انهما يبحثان في الله وفي الانسان وفي العالم . فهما من حيث الغرض المادي او موضوع البحث متفقان. ولكنهما يفترقان من حيث الغرض الشكلي او طريقة المعالجة لموضوع البحث ، لان علم اللاهوت يبحث في موضوعه مستنيرا بهدي كلام الله وايحائه ، في حين ان الفلسفة تبحث في موضوعها مستعينة بالعقل المجرد البشري وحده. ولذلك فعلم الفلسفة وعلم اللاهوت علمان متميز أحدهما

عن الاخر ، ومجال البحث في كل منهما يعينه الفرض الشكلي او طريقة البحث ، والفلسفة تخدم علم اللاهوت في انها تساعد عالم اللاهوت على استنتاج النتائج العلمية من قواعد الايمان ، وعلم اللاهوت يخدم الفلسفة في انه يساعد الفيلسوف على ان يهتدي بنور الايمان ويسلك الطريق السوي في ابحاثه وفي معرفة محدودياته الفكرية. وبما ان الفلسفة واللاهوت علمان فأن المعتقدات فيهما صحيحة، ولا يمكن ان يكون تناقض بين شيئين صحيحين. والحقائق اللاهوتية أثبت في الصحة من الحقائق الفلسفية، لان الحقائق اللاهوتية ترتكز على اساسين من الصحة وهما اليقين الايماني واليقين العقلي. ولذلك فان العلم اللاهوتي اسمى طبيعة ومقاما من العلم الفلسفي. وعلم اللاهوت هو ملك العلوم لان الغرض منه مقدس سماوي. والفلسفة هي ملكة العلوم البشرية التي هي دون علم اللاهوت. ويمكن ان يقال للفلسفة انها «خادمة علم اللاهوت» بسبب انحطاط مقامها ، ولكن علم اللاهوت لا يملي شيئا من الحقائق على الفلسفة ، وانما ينير لها السبيل حتى تصل الى غرضها بالبحث العقلي الرشيد .

هذا العرض الموجز لفلسفة توما الاكويني من حيث الفلسفة والدين يوضح لنا ان الفلسفة في رأيه تختلف عن اللاهوت كما يختلف اللاهوت عن الفلسفة . ولكن اللاهوت لما كان مستندا على الكلام الرباني ، وهو كلام لا يأتيه الباطل في وجه من الوجوه ، فانه اقوى سلطانا وأثبت حكما من الفلسفة ، فيجب ان تكون الفلسفة تحت سلطة علم اللاهوت على العكس من راي الفيلسوف العربي ابن رشد. ويظهر ايضا من كلامه ان العقل الذي هو نعمة أنعم الله بها علينا لا يمكن ان يخدعنا اذا سرنا خلفه على الوجه الصحيح . واذا استعملنا العقل وتوصلنا بهذا الاستعمال الى نتيجة تتنافى مع الحقائق السماوية فان الخطأ في ذلك ناشىء عن اسلوب التفكير وطريقته .

وأساس هذا الموقف او الاتجاه التفكيري لدى توما الاكويني ومن اتبع سبيله هو الاعتقاد الديني المستمد من الديانة اليهودية او من الديانات السماوية عموما وهو ان الله لم يخلق هذا العالم عبثا وأنه سبحانه وتعالى خلق السموات والارض والاكوان بما فيها من بشر وحيوان ونبات وجماد لغرض ولقصد وعن تصميم وتقدير . ثم ان الله كشف عن اسرار هذا الخلق وحقائقه الى شعوب مختارة عن طريق الانبياء والرسل او عن طريق مباشر كطريق السيد المسيح بشخصه . هذا الاعتقاد يؤدي بنا الى نتيجة منطقية تنجم عنه وهي ان الكتب السماوية تحتوي على الحقائق القديمة الالهية ، وهي حقائق اسمى وأثبت من الحقائق الدنيوية التي يستعان في اكتشافها بالعقل البشري. ولا يمكن ان يكون العقل البشري اصح واقرب الى الحقيقة المطلقة من الايمان ، ولا يمكن ان تكون الحقائق القدسية المنزلة في الكتب السماوية خاطئة او باطلة في وجه من الوجوه. واذا لم يقبل العقل البشري بهذه الحقائق المنزهة عن الخطأ فالعيب لا يكون الا في العقل البشري. والخطوة التالية بعد ذلك هي ان الكنيسة في القرون الوسطى اصبحت هي الحامية لهذه الحقائق من عبث العابثين والمفسر او الشارح الوحيد لمعاني هذه الحقائق التي يجب ان لا يترك شرحها او تفسيرها الى اناس ليس لهم الايمان الصحيح ، لان الايمان الصحيح ، كما يقول توما الاكويني ، هو الهادي الى سواء السبيل والمقوم لاعوجاج الفكر البشري وخلاله . ومن هنا أصبح للكنيسة الحق في ان تقي الحقائق القدسية من اخطاء العقل البشري التي قد يقع فيها اذا استعمل هذا العقل خارج نطاق الايمان الصادق. ويلزم من ذلك ان العقل البشري يجب كبحه وردعه اذا شذ عن الطريق القويم ، ولا سيما اذا استعمل الاستنتاج deduction بدلا من الاستقراء induction . ومعنى الاستنتاج هو التفكير من المبادىء الاساسية الى النتائج الفرعية ، في حين ان الاستقراء هو الوصول الى المبادىء العامة عن طريق الجزئيات ، كما هي الحال في الطريقة العلمية الحديثة .

وعلى كل فان هذا الفصل بين الايمان والعقل كان بنفسه عاملا على تقوية مركز العقل ونبه الناس الى وجود شيء آخر خلاف النقل والتقليد ، وفتح الباب امام النزاع المرير بين جماعة المنقول وجماعة المعقول ، كما حدث من قبل بين المسلمين على اثر ظهور المعتزلة الذين هم يمثلون التفكير الحر في الاسلام . ولكن هذا النزاع ، في رأي كثير من المؤرخين ، يرجع في ظهوره في أوروبا الى عاملين عربيين اسلاميين ؛ وهما ١ — المدنية العربية في اسبانيا و ٢ — الحروب الصليبية. فأن الاتصال الفكري بين الاوروبيين والعرب عن طريق اسبانيا وصقلية اولا ثم عن طريق الحروب الصليبية ثانيا أقنع الكثيرين في أوروبا بأن الدين غير مقصور على امة دون اخرى وبأن في العالم خارج أوروبا شعوبا ارقى في درجات المدنية من الاوروبيين انفسهم . فالتحرر الفكري بين العرب سبق التحرر الفكري عند الاوروبيين بأكثر من اربعة قرون . والنهضة الاوروبية المعروفة كانت ، على راي بعض المؤرخين ، نتيجة مباشرة لاحتكاك الاوروبيين بالعرب. وقد حملت الافكار التحررية الجديدة كثيرا من رجال الدين وغيرهم في أوروبا على السعي لايجاد مخرج من مأزق التعارض بين المنقول والمعقول. فهذا يوحنا الايقوسي حتى في القرن التاسع كان يحاول التوفيق بين العقل والايمان بقوله انهما مهما تعارضا فانهما ناحيتان من حقيقة واحدة وان الحقيقة نور بالوان مختلفة ، تظهر الوانها على هذا الاختلاف في عين الانسان فقط وانما هي نور واحد . ومع ذلك فان هذه الفكرة لم تجد صدى استحسان لدى السلطات الدينية .

وقد اسلفنا ما فيه الكفاية عن فلسفة توما الاكويني في هذا الباب ، وهي الفلسفة التي كان الغرض منها ، كما

قلنا ، دحض فلسفة ابن رشد وحماية الدين في أوروبا من تأثيرها .

ويذكر كولتن Coulton في كتابه عن مشاهد في القرون الوسطى ان احد الرهبان الذين كانوا في عكا في الحروب الصليبية راى امراة عجوزا تحمل مجمر نار أو كانون نار في يدها اليمنى وقارورة من الماء في يدها اليسرى وهي تقول انها تريد انتحرق الجنة بذلك الكانون وان تطفىء نار جهنم بقارورة الماء. ويعلق كولتن على هذه القصة بقوله انها تدنينا كثيرا من الفلسفة الشرقية (أي العربية) وتذكرنا بما كان للحروب الصليبية من تأثير في اثارة روح التحرر الفكري في أوروبا. ويقول انالاوروبيين راوا بأعينهم ان العرب كانوا يتحلون بصفات فاخرة ، وان هذه الصفات يمكن ان توجد عند شعب يدين بدين يختلف عن دين الاوروبيين . وكلمات العجوز في القصة الانفة الذكر شبيهة من حيث الروح بآراء الفيلسوف العربي ابن رشد في هذا الشأن . فقد كان هذا الفيلسوف ضعيف الايمان بفكرة الجنة في الآخرة وفكرة العيش في ظل الفضيلة والتقوى انتظارا للسعادة في الاخرة ، لان الفضيلة في رأيه لا معنى لها اذا كان الانسان ينتظر الجزاء والمكافأة على فضيلته هذه . ومن آرائه الفلسفية المهمة التي ادت هي وغيرها الى النقمة عليه وعزله من منصب القضاء قوله ١ ـ بوجود حقيقتين حقيقة دينية وحقيقة عقلية او فلسفية ، و ٢ ـ قوله بأن العالم يسير سيرا ميكانيكيا ولا حاجة لوجود اله يسيره و ٣ ـ قوله بعدم وجود الارواح الفردية وبعدم خلود الروح و ٤ ـ قوله بأن المادة ازلية خالدة ، فلا وجود لشيء يقال له الخلق ولا لشيء يقال له فناء. فالاقوال هذه تتعارض مع الاسلام اولا ومع المسيحية ثانيا. وقد انتشرت هذه الاقوال في أوروبا ، ولا سيما في باريس لقربها من اسبانيا واحدثت انشقاقا خطيرا في الافكار الدينية ، مما حمل الكثيرين على التصدي لمقاومتها. ومن هؤلاء ، عدا توما الاكويني الكبير ، رجل عظيم من رجال الدين وهو اسقف باريس في سنة ١٢٤٠. فقد خصص هذا الاسقف معظم كتاباته للرد على الفلسفة الرشدية ، وشكا من ان الكثيرين من المثقفين يتلقفون افكار هذا الفيلسوف العربي ويبتلعونها من غير تثبت او تحقيق . وقد لجأ معظم هؤلاء المثقفين ، كما قال توماالاكويني ، الى التستر في اعتناق الفلسفة الرشدية خوفا من غضب رجال الدين ومحاكم التفتيش ، وتذرع هؤلاء ، ومنهم أساتذة في جامعة باريس ، بفكرة ابن رشد الفلسفية عن ان الشيء قد يكون صحيحا من وجهة الفلسفة وان كان باطلا في رأي علماء الدين ، او قد يكون باطلا من وجهة الفلسفة وان كان صحيحا في رأي علماء الدين. ومعنى هذا التذرع الخطير الذي ينم عن تشكك لم يظهر في اجلى مظاهره في أوروبا الا في القرن الثامن عشر هو ان الفلسفة لها الحق في ان تصل الى نتائجها بحرية وبدون تقييد ديني وبدون تداخل من السلطات الدينية او علماء اللاهوت. وانتشرت فلسفة ابن رشد في غير فرنسا ، ووصلت الى جامعة بادوا في ايطاليا واصبحت هذه الجامعة معقلا لهذه الفلسفة. وقد شكا الشاعر الايطالي دانتي (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) من الذين ينكرون خلود الروح وخصص لهم دائرة بكاملها في جهنم. وشكا الشاعر الايطالي الآخر بترارك Petrarch (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤) من كثرة وجود الجاحدين للافكار الدينية. وقد بلغ من انتشار الآراء الرشدية ، ومنها انكار خلود الروح ، ان البابا ليون العاشر بحث في مجلسه خلود الروح . وظل هذا الانتشار مستمرا حتى كان من اكبر العوامل على نشر مبدأ الجحود والتشكك في الفكر الغربي وبعث حركة التحرر الفكري. وكتب الكاتب الفرنسي المشهور ارنست رينان Renan (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) كتابه عن فلسفة ابن رشد ، وشكا فيه من ان ابن رشد كان يعرف في خارج بلاده اكثر مما كان يعرف في داخلها. وقال عنه بعدالنقمة عليه واضطهاده ان الفلسفة لا تعيش مع التعصب حينما يخاف الحكام نقمة رجال الدين وغضبهم ، فقد احرقت كتب ابن رشد ، وعفيت آثار فلسفته في مهدها ، ولم يبق الا العالم المسيحي يذكر انه كان للمسلمين مفكرون وعلماء . ثم قال رينان ان الفلسفة العربية تعطي مثالا لا يكاد يوجد له نظير على ثقافة سامية جدا قد اخفقت حال ظهورها تقريبا ولم تترك اي أثر لها ، حتى انها تنوسيت جميعها تقريبا بين ظهراني الامة التي ولدتها . وهذا القول من كاتب فرنسي في القرن التاسع عشر يجدر ان يكون تقريعا للمفكرين العرب في العصر الحاضر على اهمالهم للثقافة العربية ، وتنكبهم عن احتمال المشاق في سبيل البحث والتنقيب عن آثار المدنية العربية وتراثها سواء في الشرق او في الغرب . ولم أجد الى الان باحثا عربيا يسعى لاحياء الافكار الثقافية العربية او الاسلامية او يسعى مثلا لمعرفة تأثير العرب في النهضة الاوروبية بعد القرن الثاني عشر او لمعرفة تأثير الشعر العربي في الشعر الفرنسي القديم وفي قيام جماعات التروبادور Troubadours أو الجونكلير Jongleurs او التروفير Trouveurs وغيرهم او تأثير الشعر العربي في الشعر الايطالي القديم او في قيام شعراء البلاط في أوروبا . وتوجد ايضا ميادين للبحث عديدة للعرب فضل فيها ، كالفروسية مثلا ، تنتظر همم المفكرين العرب للكشف عنها ، بدون الاعتماد فقط على جهود المستشرقين وحدهم الذين لم تكن نية جميعهم خالصة في خدمة المدنية العربية . ومما اذكره في هذا الباب دليلا على الحنق ضد المدنية العربية في أواخر القرون الوسطى واوائلالقرون الحديثة ان جماعةالسوربون في باريس ارادت ان تتحقق من النهضة الاوروبية هل كانت عن طريق الكتب العربية الناقلة للمدنية الاغريقية والمترجمة الى اللغة اللاتينية أم عن طريق الترجمات

سحقا لحب

لا تشمتي بي ، يا ابنة الفسق
فانا ، بلا حب ، أعيش على
أنفس الدنيا ، وأسيح في
وأسير ، والاقمار ملء يدي
وانام لا طيف ولا شبح
.... لا تحسبيني قد حزنت على
فتنكبي عن مارد غضب
... اني كفرت بكل أغنية
سحقا لحب . كان مقصلة
قد لوثت قلبي بظلمتها ...
لا تشمتي بي ، يا ابنة الفسق
جبل أنا ، هيهات تصرعني

يا لعنة الارهاق والقلق !
كاسي ، بلا أسف ، بلا حنق
رأد الضحى ، او حمرة الشفق
عريان من ألم ومن رهق
نوم البريء بلا خوف ولا أرق !
حب تهاوى كافر الرمق
ان تقربي للقاه تحترقي !
للحب توقظ نائم الشبق !
زرقاء يحجب ظلها أفقي
ويكاد يقطع حدها عنقي !!
يا نار حرماني .. ويا عرقي
جوفاء ، من طين ومن ورق !

بغداد — حسين جليل

في الحب

ففي الحب ان نشقى بما اشتد من وجد
ولو كان يجدي الصبر كنت اتخذته
حسبنا لديكم ما يطيب لظامىء
وقلنا : رياض العشق نجني قطوفها
اردنا اجتناء الشهد من حيث يجتنى
أردنا ، ولكن المقادير قد رأت
تذرعت حينا بالاماني ، علني
وقلت : اديم الطرق على الذي بدا
وهاتذا والباب ما زال موصدا
واشرب أيامي عذابا ولوعة

نعانيه في قرب ، ونصلاه في بعد
ملاذا ، ولكن كيف والصبر لا يجدي
فلم يخترع غير المدامع والسهد
ونرجع منها بالازاهر والورد
فابنا بلوغ النحل ، لا قطع الشهد
خلاف الذي شئناه في الحب من قصد
أعود بما ابقيه من سائغ الود
مع الطرق يستعصي ، سيسلس من بعد
أعاني من الايام والزمن النكد
يقيدني يأسي ، ويطلعني وجدي

شبين القناطر — ج٠ ع٠ م — عبد المنعم عواد يوسف

اللاتينية عن اليونانية رأسا. وخصصت الجامعة لجنة من الباحثين لهذا المشروع ، فشرعوا فيه ولكن مؤلف الكتاب الذي انقل عنه هذا الخبر لم يقف على النتيجة . ويجب ان نذكر في هذه المناسبة ان المؤرخين الاوروبيين ظلوا متمسكين بفكرة مفادها ان النهضة في أوروبا كانت بفضل علماء القسطنطينية الذين فروا في القرن الخامس عشر من الاتراك وحملوا معهم العلوم اليونانية ونشروها في أوروبا ، الى ان ثبت لدى المؤرخين عدم صدق هذه الرواية وصححوا ذلك بقولهم ان النهضة الاوروبية مدينة للعرب . ولا يخفى ان الغاية من طمس الحقائق واظهارها في غير مظهرها هي الحط من قيمة المدنية العربية ومن فضلها على المدنية الغربية ، اذ كيف يمكن لمدنية غير مبنية على التقاليد الاوروبية القويمة ان تكون متفوقة هذا التفوق ؟ ويجب ان لا ننسى كيف ان المؤرخين الاوروبيين انكروا ان يكون للعرب مدنية علمية في الرياضيات والكيمياء والعلوم الاخرى .وعلى راس هؤلاء المؤرخ الآثاري بتري Petrie . وكنت في المدة الاخيرة اقرا تاريخ البابوية لمؤلفه رانك Ranke الالماني ، فقال ان العرب درسوا الفلسفة وكتبوا فيها ولكنهم لما ترجموا كتب اليونان شوهوا الترجمة وادخلوا فيها آراءهم حتى افسدوها ، وكذلك فعلوا بالفلك فقد جعلوه اقرب الى التنجيم وجعلوا الطب اقرب الى الشعوذة ــ الى غير ذلك من مثل هذا الكلام الساقط .

لندن — حسن الكرمي



محمد رجـب البيومي

محمد توفيق البكري ناثرا

بقلم محمد رجب البيومي

نال الكاتب المعروف الاستاذ محمد رجب البيومي جائزة المجمع اللغوي بمصر هذا العام عن دراسته القيمة لحياة السيد توفيق البكري وأدبه، ويسرنا ان ننشر اليوم حديث الكاتب عن نثر السيد توفيق في عددين متواليين راجين ان ننشر بعد ذلك حديثه عن شعر السيد .

٭٭٭

كان حفني ناصف ومحمد المويلحي وتوفيق البكري أظهر ادباء الشعر المنثور في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن ! ولكل طريقته ومنحاه.

فحفني ناصف يقصر نثره الفني على الرسالة وحدها ، وهو فيها، سلس العبارة حلو الفكاهة ، ذو تنظيم بارع للاسجاع والفواصل ، يصدر عن نفسه في اكثر معانيه وخواطره فهو يتحسس عواطفه نحو صاحبه ، ويرصد خلجاته ومشاعره ، ثم يختار الفاظ رسالته اختيار الشاعر الحريص على نصوع العبارة ، وحلاوة الجرس ، وطرافة النادرة ، فاذا قرأتها بعدئذ شاهدت روحا لطيفا يتحدث ، ورواء أنيقا يشف ، وجرسا رخيما يرن ولك ان تقرأ شاهد ذلك مما نختاره من بعض رسائله ، وان كنا نعلم ان الحكم الدقيق على أسلوب اديب او شاعر لا يكون باختيار شاهد واحد او شاهدين من انتاجه فلا بد من دراسة مستوعبة لما نعلمه من آثاره ، ولكننا في هذا المضطرب الضيق من المقال ، نختار من آثار الاديب ما يقرب طابعه العام بعض التقريب ، وذلك على قصوره أولى من ارسال الاحكام دون استشهاد ! على أنه يترك للقـارىء الدارس مجالا للبحث والمقارنة ، يصل الى نتائج متفقة او معارضة ، وذلك كسب للادب ينتجه ما نضطر اليه من الاستشهاد الجزئي بحيث يضيف اللاحق الى السابق حلقة جديدة في سلسلة الدراسات الادبية وهي سلسلة موغلة لا تنتهي الى زمان ، قال حفني في الرسالة البكرية :

« زرت السيد ويعلم الله ان شوقي للقائه كحرصي على بقائه ، وكلفي بشهوده ، كشغفي بوجوده ، فقد بعد والله عهد التلاق ، وطال امد الفراق ، وتصرم الزمان ، وانا من رؤيته في حرمان ، فسالت عنه فقيل لي انه خرج لتشييع زائر ، وهو عما قريب حاضر. فانتظرت رجوعه ، وترقبت طلوعه ،ولم ازل اعد اللحظات ، وأستطيل الاوقات ، حتى بزغت الانوار ، وارتج صحن الدار ، وظهر الاستبشار على وجوه الزوار ، وجاء السيد في موكبه ، وجلالة محتده ومنصبه ، فقمنا باستقباله ، وهيمنا بكماله ، فمر يتعرف وجوه القوم حتى حازاني ، وكبر على عينه ان تراني ، ففادرني ومن على يساري ، واخذ في السلام على جاري ، وجر السلام الكلام ، وتكرر القعود والقيام ، وأنا في هذه الحال ، اوهم جاري اني في داري ، وأظهر للناس ان شدة الالفة تسقط الكلفة ، مر السيد بعد ذلك من امامي ثلاث مرات ، ومن القريب انه لم يستدرك ما فات» .

فهذه خواطر صادقة لصديق عاتب ، وصاحب غاضب ، تـراءت في سلاسة شفافة وجرس مطبوع ، فصادفت قبول القارىء واستمتاعها لانها ترجمة انيقة عن احساس صدوق !!

اما المويلحي فلم يقتصر في نثره الفني على الرسالة بل تعداها الى القصة بمدلولها الساذج فوصف ورصف ، وحلل وعلل ، واوجز واستطرد ، وغاص في القاع تارة ، وطفا على العباب تارات ، وهو في بعض أحواله برصد الهاجسة الدقيقة ، ويصف اللمحة الطائرة ،ولكنه يحلق كثيرا حين يرسم المنظور المحسوس ، ويصف بعض الشيء حين يلج الحوائل والستور ، على سماحة في اللفظ ، ونعومة في الايقاع، ولك ان تقرأ شاهد ذلك من قوله في وصف المحكمة الاهلية ص ٣٧ .

« ولما حل يوم الجلسة رافقت الباشا الى المحكمة ، فوجدنا في ساحتها اقواما ذوي وجوه مكفهرة ، والوان مصفرة ، وأنفاس مقطوعة ، وأكفا مرفوعة ، وشاهدنا باطلا يذكر ، وحقا ينكر ، وشاكيا يتوعد ، وجانيا يتودد ، وشاهدا يتردد ، وجنديا يتهدد ، وحاجبا يستبد ، ومحاميا يستعد ، وأما تنوح ، وطفلا يصيح ، وفتاة تتلهف ، وشيخا يتأفف ، وسمعنا الفاظا متناقضة ، واقوالا متعارضة ، ورأينا المحاميين عن الخصمين ، يشحذ كل منهما لسانه ، ويقدح جنانه ، استعدادا للنزال ، في ميادين القتال ، وتأهبا للدفاع في مواقف النزاع ،ليخرج كلاهما بغنيمة البراءة في الحكم ، ورفع التهمة والجرم ، فانزويت بصاحبي ، ومحامينا بجانبي ، يذكر لنا اصولا مرعية ، ومسائل فرعية، وظروفا وأحوالا ، وشروحا وأقوالا ، ثم يتصفح محاضرة ، ويقلب دفاتره ، ويقسم لنا بوكيد الايمان ، ان الباشا من تهمته في امان ، وانا أجيب صاحبي عن كل سؤال بما تقتضيه الحال ، ولما سالني عن هذه اللمحة قلت هي المحكمة » .

وهكذا نرى ناصفا والمويلحي ــ على اختلافهما في معدن الروح الفني ــ يرسلان نثرهما في غير تكلف مثقل بالصنعة ، حافل بالغريب مباه بسعة الاطلاع على امثال العرب وسوائرهم الشاردة ، اما السيد توفيق البكري فقد حان هنا موعد الحديث عن نثره الحفيل .

يقول السيد في مقدمة صهاريج اللؤلؤ « اما بعد فهذه كلمات من النثر وأبيات من الشعر ضمنتها نخبا من الحكم ، واقاويل من جوامع الكلم ، وذكرى من مغربة الاخبار ونعوتا لبعض الاناسي والآثـار ، ومثلات في المواعظ والاعتبار ، وشعشعتها بأنظار الجهابذة المتقدمين ، والحكماء المتأخرين كما تشعشع الراح بثغبان البطاح فجاءت بحمدالله من البلاغة في القرار المكين والركن الركين ، وقد التزمت في اكثر عبارتها فصيح الحجاج ، ولسان رؤبة بن العجاج ، وأنـا اعلم ان من الادباء من ينفر من الغريب ، ولا ينفر من الدخيل ، لاستيلاء العجمة على هذا الجيل فلم يثنني ذلك عن ان اودع كلام الاعراب بهذا الكتاب ، وأحدو في اثر تلك الرفاق ، بما في هذه الاوراق » .

وهذا القول يحدد الانموذج الفني للكتابة الادبية في رأي السيد ، كما أوضحه في مقدمة كتابه اذ ان اكتمال هذا الانموذج باعترافه الصريح يجعل الاسلوب الادبي من البلاغة في القرار المكين والركن الركين ، وطبيعي ان كل ما خالف هذا الانموذج من القول ، لا يوصف في رأي السيد بالبلاغة الاصيلة المكينة ، وقد كان الرجل مخلصا في قوله ، اذ

ان قارئه الفاحص بجده يصدر عن هذا الرأي في نثره الفني ، لا يحيد عنه ولا يتعداه ، فاذا اراد ان يصف مدينة ، او رجلا او منظرا طبيعيا فلن يتقيد بالسجع او التشبيه وحدهما كما نرى عن المويلحي وناصف بل يضيف اليهما الاقتباس المستطرد من آثار السابقين ، ليدل به على كثرة محفوظه وسعة اطلاعه مضافا الى ذلك الغريب العويص من الفاظ اللغة ، حيث لا يكون الاديب اديبا في رأيه الا اذا التزم فصيح الحجاج ولسان رؤبة بن العجاج!! وكأنه فهم ان الاغراق المطيل في الالماع الى حوادث التاريخ وأمثال العرب ، والاشارة الى عظماء الرجال وكبار الوقائع في أسلوب عويص غامض مما يجعل النثر الادبي ميدان الاستطالة والمباهاة !! اما شعوره الدافع الى التعبير فيأتي ضائقا برما بهذه القيود والاثقال ، ولو تخفف كثيرا مما فرضه على نفسه من اصفاد مرهقة لانطلقت خواطره مطردة مندفعة ، لان السيد يجد في نفسه ما يعبر عنه دون نزاع ، فله احساس متوهج ولديه نظر وتأمل ، ولكن مذهبه الفني يخنق كثيرا من عواطفه المنطلقة ، فتراها متعبة لاهثة تضج بما يغللها من كبول ، لقد كان في استطاعته ان يكون كاتبا مفكرا له نظرته البعيدة في الحياة والاحياء ، وواصفا مبدعا له ريشته المصورة ذات التلوين والافتنان فثقافتهالمتنوعة وخياله البارع يرفدانه بما يرشحه للجودة الرائدة والالهام الحي ، وقد سبق كثيرا من الكتاب بصوره الجميلة الزاهية وآرائه الجريئة الثائرة ! وما كان اسبقها من آراء واثبة لو نزع عنها اغلال الصنعة ، وسار بها سير الماء المطرد في النهر الواسع ، ولعل من انصافه ان نعرض الى سمات أسلوبه بالتحليل ، مبينين ما يندرج تحت كل سمة من وجوه الاستحسان المحبذ او الاعتراض الناقد !

على ان ما بقي لدينا من انتاج السيد في ميدان النثر الفني محدود محصور في اضيق نطاق اذ ان صهاريج اللؤلؤ وحده هو كتاب آدبه ، وسجل فنه ، جمع فيه ما اختاره من بليغ شعره وفصيح نثره، وقد بدأه بوصف رحلته الى القسطنطينية حين ركب اليها البحر من القاهرة ، فرأى من مشاهد الموج المتلاطم وصراع السفينة في غماره ، وتوالي الصباح والظهيرة والاصيل والليل ، وبزوغ الهلال وتواريه ، وما قدم اليه من مأكل ومشرب ، ومن اصطحب من رجال ونساء ، رأى من ذلك ما سجله لقارئه في عبارات انيقة مصقولة ! ثم ركب القطار الى دار السعادة ، فشاهد مقاصرها وميادينها ، وحدائقها وانهارها ، ومن تعج بهم من ذوي الالسنة المختلفة والازياء المتباينة ثمخص بالحديث اعلامها المشاهير ، وفي مقدمتهم امير المؤمنين وابو الهدى الصيادي ! وبذلك انتهت اغراض الباب النثري الاول ، من الصهاريج ثم تلاه من النثر حديث متأمل عن نابليون في حالتي صعوده وسقوطه ، وصف به معاركه الراجفة ، ثم بكى فيه غروب شمسه مستشهدا بحوادث التاريخ وأبيات الشعر وعظات الايام فاذا فرغ منه تحدث فيما تلاه من النثر عن مزايا العزلة في رسالة ادبية اتحف بها أحد خلصائه ، وقد رسم بها اجمل المناظر للريف المصري بجداوله وحقوله وحيواناته وأناسه وصباحه وظهيرته وليله وقمره ، وشتائه وصيفه وخريفه وربيعه ، وما قرأ به من الكتب والاشعار مستطردا الى رذائل المدينة ومن بها من حاكم متسلط ، واصحاب ذوي غدر ونفاق ، وفتيان اثرياء خاملي النفس باردي الحس ساقطي الهمة يبذرون الاموال في الموبقات ، وقد انكروا حق الفقير في المال ، وصموا عن نداء الله في الزكاة ، متحسرا على العامة من الدهماء ، وقد عضهم الجوع وقتلهم المرض ، واطغاهم الجهل مفضلا عزلته البعيدة في الريف عن مشاهدة هؤلاء في عجيج المدينة وضجيجها الرنان ، وفي فصل تال يتحدث عن فقيد عزيز غربت شمسه، فيصف قبره ، ويرسم صورة حسية تبرز قسمات الراحل وملامحه ويخلع عليه ما يستطيعه قلمه من اوصاف الالمعية والذكاء ثم يتطرق الى دنياه الغادرة وكيف مزجت السم بالدسم وعاجلت اللذة بالالم ! ويقف امام المقابر وقفة الشاعر المتأمل فيتحدث عمن حوت من ملوك وحسان وحور وولدان ، فاذا اتم حديثه تطرق الى وصف مرقص رآه في (فينا) فما ترك معنى يلم بالخاطر دون ان يسطره موشى بالرائق من الخيال والرائع من الصور ، وقد أسهب على غير عادته ، ثم انتقل الى صلاح الدين فتحدث عنه حديث المسلم العربي المعتز بحامي العروبة وقاهر الصليبيين ، وشاء ان يعود الى مناظر البهجة فوصف غابة بولونيا بباريس ، وصور مشاهدها الرائعة في شتى اوقات الليل والنهار ، وتطرق الى حديقة الحيوان بها فتحدث عن الاسد والفيل والفهد والظبى والناقة وحمار الوحش ، وختم الصهاريج بالحديث عن مولود تنبأ له بالذكاء اللامع والمستقبل الرائع ، وتخيله في غده جليل الخطر عظيم المهابة ذا منزلة بين القمر والعيوق ! واستشهد بروائع الشعر ومثلات التاريخ !

ذلك كل ما جاء في صهاريج اللؤلؤ خاصا بالشعر المنثور ! واذا أردنا ان نحدد سماته الفنية فلا يسعنا الا ان نتمهل قليلا عند كل عنصر من عناصر اسلوبه ، لينحصر الرأي في مجال محدد دون اسراف ينزع بنا الى الشطط والجموح .

المعاني : نعرف جيدا ان الاديب ابن زمانه ، وربيب بيئته ، وليس من طبائع الاشياء ان نطالبه بما لا تقتضيه عادة الزمن وسنة الحياة ، وقد كان الادب الجيد في زمان البكري يتجه الى المحاكاة المتقنة لفحول السابقين من ائمة النثر والشعر ، ففضل البارودي في تجديده الشعري يكمن في محاكاته الدقيقة لاساليب الفحول من فرسان العصر العباسي ، والارتفاع بالشعر عن تهافت النظم البديعي ، وفضل مدرسة عبدالله فكري يكمن في نزوعها عن عبث المتاخرين ممن تسير الالفاظ بمعانيهم حيث تقع موقعها من السجع المتكلف او الجناس الثقيل او التورية الباردة الى محاكاة ائمة النثر الفني في القرن الرابع ، حيث ينقل الكاتب عن صدره في رواء انيق يتسم بالجودة والاصالة لا بالتكلف والاستكراه ، واذا كانت هذه المحاكاة المتقنة من ابرز اهداف الكاتب ، فانك حينئذ لا تنتظر منه في كثير من الاحوال معاني طريفة او أفكارا جديدة ، ولكنك تجد معاني السابقين مسطورة منمقة في رواء متناسق منغم !

على ان السيد البكري كان أحرص زملائه على التمسك بمعاني من يحاكيهم من البلغاء ، فجل افكاره تفد الى ذهنك حين تطالعها ، مألوفة معروفة ، وكأنك ترى اناسا تعرفهم بأسمائهم وصفاتهم ، فاذا عزك ان تعرف اسما لاحد هؤلاء الناس فانك تتذكر ملامحه ، وتسأل نفسك في أي زمان ومكان قابلت هذا الرجل وما تزال تفكر حتى تهتدي الى ما تريد ، اذ ان مسألة البلاغة الكتابية في رأيه مسألة تعبيرات جيدة ، وتشبيهات رائعة ، وافتخار بالمحفوظ المستوعب من آثار السابقين !! واذا كنا نقدر جهد البارودي في محاكاته الشعرية ، فنحن نقدر جهد مدرسة عبدالله فكري في محاكاتها الادبية ، مع اعترافنا بأن السيد البكري اعرق ادبائها في هذه المحاكاة ! واخاله قد فهم ما يقال عن الاقتباس والتضمين والعقد والحل على غير وجهه الصحيح لدى البديعيين اذ ان ذلك يأتي ملحا يسيرة في الكلام يتطرف بها ، اما ان يكون اكثر الاسلوب اقتباسا فهذا ما تختلف الانظار في تقديره !

وقد قال السيد في مقدمة الصهاريج انه شعشع اسلوبه بأنظار الجهابذة المتقدمين والحكماء المتاخرين كما تشعشع الراح بثفبان البطاح فجاءت بحمدالله من البلاغة في القرار المكين والركن الركين ، وهو بذلك يقرر ان البلاغة المكينة تكون بمزج كلام غيره بكلامه كما تمزج الراح بالماء !!

وناقدو السيد من الادباء يقفون من هذا الاقتباس مواقف مختلفة ، فجورجي زيدان يقول في تقريظ الصهاريج بمجلة الهلال ١٢ مارس عام ١٩٠٧ .

« خيل الينا ونحن نطالع منثوره اننا نطالع شعرا نثره بلغاء الجاهلية او صدر الاسلام على اسلوب وصفي لا نعرف احدا جاء بمثيله

من أئمة اللسان في ذلك العصر الا علي بن ابي طالب فانه جاء بشيء من الشعر الوصفي المنثور في بعض خطبه كما وصف الخفاش او الطاووس ، فلما نهض أهل القرن الماضي لاحياء آداب اللغة العربية اقتداء بالافرنج كان في جملة ما تحدوهم فيه من ضروب آدابهم الشعر الوصفي المنثور ، وكنا نقرأ ما نثره ادباؤنا من الخيال الشعري فنراه مخالفا لاسلوب البلاغة العربية الا ما قرأناه بالامس لفقيدنا اليازجي وقليلين غيره ثم قرأنا نثر البكري في كتابه المشار اليه فرأينا الشعر المنثور تقدم في نهوضه تقدما سريعا على غير المألوف من احوال الارتقاء .... فظهور الكتاب في هذا العصر نهضة جديدة في الشعر الوصفي المنثور » .

تلك مقدمة مهذبة مهد بها زيدان الحصيف لنقده ثم اتبعها بقوله «على اننا بعدما تقدم من ايفاء سماحة المؤلف حقه من ذكر حسنات كتابه ينبغي ان ننبه الى مواضع النقد فيه ، ثم خلص الناقد الى ما يهمنا من كثرة الاقتباس فقال :

«رأينا بين لآلئي هذه الصهاريج كثيرا مما عرفناه لبعض المتقدمين من الافكار والمعاني ولا مشاحة ان بعضها توارد اتفاقا ولا سيما في الامور البديهية والتصورات الطبيعية ، ولكن البعض الاخر مقتبس من المتقدمين ، ولم ينكر المؤلف ذلك ، فاعترف به في مقدمة كتابه حيث قال « وشعشعتها بأنظار الجهابذة المتقدمين ، والحكماء المتاخرين كما تشعشع الراح بثغبان البطاح ».

فاقرار المؤلف بذلك يذهب بأسباب الانتقاد على ان الاقتباس اذا اقتصر على المعنى ، وصيغ صياغة ثانية نجا من العيب ، فقد كان ابو العلاء يفضل المتنبي على غيره من الشعراء وسمى شرح ديوانه معجز احمد ، وذكروا انه قيل له : كل معنى للمتنبي تجده منقولا عن غيره ، فقال : هذه مآخذه من سواه لديكم فليصنع كل منكم مثل ديوانه ان كان ذلك في امكانه .

وقال«بوالو» الشاعر الفرنسي: «الشاعر صانع يلتقط الدرروالجوهر حيثما وجده فيصوغ منه غرائب الحلى ونفائس التيجان وليس عليه ان يغوص البحر على كل لؤلؤة ، او يصعد الجبل لكل جوهرة.» ونرى الافرنج يقتبسون الفصول برمتها وبعضهم يقتبس الكتاب كله كما فعل فرجيل بالياذة هوميروس ، وكما فعل غيره من شعراء النصرانية في الاجيال الاخيرة من الفرنساويين والايطاليين والالمان وربما انتقدوا الشاعر الكبير اذا اكتفى بما يخترعه من المعاني ، ولم يقتبس شيئا من المتقدمين فاذا احسن الاقتباس اثنوا على براعته في التقليد والتحويل، ولكن العرب لا يزالون يستنكفون من الاقتباس الكثير ، وانما يغتفر ذلك لمن يحسن الصياغة كما فعل صاحب الصهاريج في اكثر مقتبساته»

هذا كلام زيدان ! وهو كلام حذر دقيق ينبيء عن اخلاق صاحبه في مجاملة الناس ما استطاع والبعد عن اغضابهم على تهيب ، وبخاصة اذا اتجه الحديث من اديب مسيحي مهاجر الى شيخ مشايخ الطرق الصوفية في تألقه الساطع ! وقوله في نقده « على اننا ينبغي لنا بعد ما تقدم من ايفاءسماحة المؤلف حقه من ذكر حسنات كتابه ان ننبه الى مواضع النقد فيه » هذا القول وحده يصور شعور صاحبه في دقة مسلكه ، وأكيد احتياطه ، فاذا استشهد بعد ذلك لجواز الاقتباس باقتباس المتنبي من الشعراء فهو يعلم جيدا ان القياس مع الفارق لان المتنبي لم يكن ينتزع ابياتا من اصحابها ويصلها بصورتها الاصلية ، ولكنه كان يقع على بعض معاني السابقين في أحوال قليلة فيصوغها صوغا جديدا يظهر فيه شخصيته الادبية بوضوح ، اما البكري فيصر على اقتباس المعاني والالفاظ كما جاءت دون تبديل ، ويرى ان ذلك يماثل امتزاج الراح بثغبان البطاح ! وهو من البلاغة بالقرار المكين .

اما الاستشهاد ببوالو الفرنسي فمما يذهب مذهب المتنبي لا البكري ، وما نرى احدا من الفرنجة يجيز ان يقتبس فصولا برمتها من غيره الا اذا كان ساطيا نهابا ، وغاضبا سلابا ، وفرجيل لم يأخذ حديث هوميرس كما صاغه شاعر اليونان ولكنه استلهمه بعض المواقف والحوادث ، ولكلا الشاعرين جوه وصوره واحداثه فكيف يكون الايحاء والاستلهام اقتباسا كاقتباس صاحب الصهاريج ! وقد افصح زيدان عن نفسه حين قال ان العرب لا يزالون يستنكفون من الاقتباس الكثير ، ونزيد عليه بأن نقول ان العرب وغيرهم في ذلك على حد سواء ! واذا كان نقد زيدان في جملته مما يرضي السيد البكري ، فنحن نرى ناقدا آخر ، يشير الى كثرة اقتباساته اشارة المؤيد المستجيد ، ذلك ان الدكتور زكي مبارك قد استشهد في الجزء الاول من النثر الفني ص ١٩٠ برسالة ابن العميد الشهيرة ومطلعها « وصل كتابك فصادفني قريب العهد بانطلاق من عنت الفراق ....ثم عقب عليها بقوله :

« وللقاريء ان يتأمل هذه القطعة فسيرى صورها جميعها منتهبة من غرر الشعر القديم ، بحيث لا يبقى لابن العميد معنى واحد خلا من لباس معروف ومع هذا فمن ينكر انها من طرائف النثر الجميل ، ان الكاتب افاض عليها من روحه كما تفيض الحسناء من سحر الملاحة على ما تحمل من دمالج واساور وعقود ، ونستطيع ان نضرب المثل ببعض اطايب الادب الحديث فهناك كتاب صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيقالبكري، وهو كتاب نفيس لا يختلف في استجادته اثنان ، ولا اقول لا ينتطح فيه عنزان ، فرارا من الكليشيه !! وهذا الكتاب مع جودته قلما يقع فيه تشبيه الا وهو مسروق من القدماء وخاصة رجال القرن الرابع ، وما نظرت فيه الا تذكرت ما قاله احد النقاد المتقدمين في سعيد بن حميد «لو قيل لكلام سعيد وشعره ارجع الى اهلك لما بقي منه شيء ولكن هذا لا يمنع من اننا نقرأ نثر السيد توفيق البكري ماخوذين بابداعه وافتنانه حتى لنحسب انه صاحب ما يطالعنا به من الصور والتشابيه!»»

هذا كلام الدكتور مبارك ، ومكمن الضعف فيه انه قاس اقتباس ابن العميد باقتباس السيد البكري والاول معتدل مقتصد والثاني مسرف مبالغ فلا يستويان .

وقد تعرض الدكتور الى اقتباسات البكري مرة اخرى ص ١٧٣ من الجزء الاول من النثر الفني فنسب بعضها الى الثعالبي ، ونسبالبعض الآخر الى احد كتاب ذلك العهد دون ان ينص عليه ، ومما استشهد به قول البكري في وصف غرور احد الرؤساء ص ١٧٤ .

« كأنه جاء برأس خاقان ، او أدال دولة بني مروان ، او ان الايوان داره والهرمين آثاره ، وعصام بن شهيد حاجبه ، وعمرو بن بحر كاتبه ، والحجاج غلامه والحماسة كلامه ».

فقد قال الدكتور انه مأخوذ من قول احد كتاب القرن الرابع !

« قد أسكرته خمرة الكبر ، واستغرقته لذة التيه ، كأن كسرى حامل غاشيته ، وقارون وكيل نفقته ، وبلقيس احدى داياته ، وكأن يوسف لم ينظر الا بطلعته ، وداود لم ينطق الا بنغمته ولقمان لم يتكلم الا بحكمته ، والشمس لم تطلع الا من جبينه ، والغمام لم يبد الا من يمينه » .

والحق ان ما قاله البكري شيء ، وما نقله الدكتور شيء آخر ، فليس في المسالة اخذ واقتباس ولكنه احتذاء واقتفاء ، ولو كانت اقتباسات السيد البكري على هذا النمط ما اتجه القول بالاقتباس الى أسلوبه ، على ان الدكتور لم يعين لنا هذا الكاتب من القرن الرابع ، وكان الواجب ان يشير الى اسمه ، وقد واليت البحث عنه حتى اهتديت الى فصل تحت عنوان (الاستطالة والكبرياء والجبن) بالجزء الثالث من زهر الآداب ص ١٣١ ، حيث سرد الحصريالفاظا لاهل العصر في ذلك ومنها ما نقله الدكتور مبارك ! وهي بعد ليست لرجل واحد ، ولكنها مختارة من عدة كتاب !!

ان وقوف السيد عند معاني القدماء قد ضاءل من شخصيته الفكرية ، واحاله على ثقافته الجيدة ، واحساسه البصير كان يجد في نفسه من المعاني ما يئده وأدا دون ان يفصح عنه اذ لم يجد الثوب القديم اللائق لابرازه ، ولو قدر له ان يجد من يقنعه اقناعا أكيدا بأن

استحضار المحفوظ في كل مناسبة ليس مجال الابداع الفني والتبريز البياني لانطلق من عقال الذاكرة الحافظة الى فضاء الالهام والابداع ، على ان مما ضاءل من ابداع كثير من الناثرين في عهد البكري انهم فهموا ان الافكار الدقيقة والمعاني العميقة وقف على الكتابة العلمية لا ينتقل منها الى الشعر المنثور او الشعر الموزون ، وكأني بهؤلاء وقد ظنوا الادب مقصورا على تصوير العواطف السطحية في تعبير براق آخذ ، ولو علموا ان العاطفة تكون متنفسا فسيحا للافكار القوية اذ تصير نافذة تطل بالضوء المشوق على المعاني الغامضة فتزيل جفافها ، وتجعلها مادة صالحة للاستمتاع الفكري ، والاشباع الوجداني ، واذ ذاك تغدو القطعة الادبية ساحرة آخذة بفكرتها القوية وصورتها البلاغية وجرسها الموسيقي ، لو علموا ذلك حق العلم لوجدنا فيما تركوه من النثر الفني مادة رائعة تكون مجال الاقناع والامتاع معا ! ولكننا نتجاهل ظروف الزمن والبيئة اذا طالبنا ادباء القرن الماضي بذلك ، فحسبهم ان جددوا الديباجة ، وازالوا الركاكة ، وحاربوا التكلف والاستكراه !! وحين نحكم هنا على السيد بضآلة محصوله الفكري في تراثه الادبي فاننا نقدر ظروفه الثقافية ، ولن نطالبه بما لا يستطيع ، الا اننا حين نقرنه بزملائه الذين قيدتهم ظروفه وملابساته قد نجد لديهم من التحرر النسبي اكثر مما نجده لدى صاحب الصهاريج !

ونضرب هنا مثالا واحد من امثلة كثيرة لسيطرة الذاكرة الحافظة على معاني السيد ، لنرى كيف وقفت حائلا دون اكتشاف الجديد من الخواطر والافكار .

يشاهد السيد احدى حفلات الرقص في بعض مسارح فينا ، فيصف العاصمة النمساوية بما يجوز ان توصف به كل عاصمة اوروبية دون تخصيص ، ثم يصف قصر الرقص بانه (كقصر غمدان ، او خورنق النعمان ، او السدير او القصر الكبير ، او الزاهر او دار بن طاهر او الجعفري او الايوان الكسروي)

تتيه به البلاد وساكنوها ... كما تاهت بزينتها الغواني

وقد ارتفعت قبابه في الاجواء ، فكأن ابراجه ابراج السماء ، وكأن كل ردهة (١) بطحاء وكل روض صنعاء بلاط وخفدق ، ودارات (٢) وديسق (٣)، وأبهاء وجوسق (٤) وكهرباء تضيء الارجاء كأنها بدر او فجر.

يا أبا مسلم تلفت الى القصر ... وأشرف للبارق اللماح
ومنيفا يريك صنعاء نصا ... وهي خضراء من جميع النواحي

ثم يترك خارج القصر الى داخله فيصف القباب والمقاصير والسرادقات والبسط والديباج والصحف والاواني بما ينبيء عن كثرة محفوظة وقلة ملحوظة حتى اذا انتهى الى أوانس القصر وعذاراه ومن ما هن ، قال عنهن « وثم الخرد الحسان ، كاللؤلؤ والعقيان ، من كل عطبول (٥) وفلة (٦) ، او اسحلانة (٧) ربله (٨) او خليف (٩) بهنانة (١٠) ، او رهرهة (١١) فينانه ، او لاعة (١٢) سيفانة (١٣) .

زجاء(١٤) ابريق(١٥) العش خوثل(١٦)
ركاضة (١٧) للبرد والمرحل (١٨)
بقصب فعم العظام خدل
ريان لا هش (١٩) ولا مبهل (٢٠)
في صلب لدن ومشى هو جل (٢١)
تدافع الجدول اثر الجدول

اذا خطرت تأود جانباها ... كما خطرت على الروض القبول
يقوم من تثنيها اعتدال ... يكاد يقال من هيف نحول

صدور كالاغريض (٢٢) ، او صدور البزاة البيض ، وسواعد كأنها شماريخ من ماس او مرمر نحته فدياس (٢٣) ، وعيون كأن بين اهدابها رام من بني ثعل (٢٤) او أسد بين طرفاء وأسل، او انها نرجس عطشان ، او سيوف تقتل وهي في الاجفان .

سللن من الحداق السود بيضا ... فما ندري قيان او قيون
قمن في مأتم على العشاق ... ولبسن السواد في الاحداق

وقد امتزج فيها الفتر بالحور ، فهي سكرى ولا مدام ووسنى ولا منام .

اذا نظرت قلت بها ذلة ... او خطرت قلت بها كبر

وفم كأنه اقحوانة لم تتضوح ، ووردة لم تتفتح ، يضحك عن جمان ، وتتنفس عن ريحان ، وينطق عن ألحان ، وخدود ، كنار أخدود ، او تفاح ، او ماء وراح ، او الشفق في الصباح ، ورد يفتحه النظر ،ويشعشعه الخفر ، كأن حياءه الجلنار ، وبياضه ماء واقف جار.

اذا مشيت على الحصباء صيرها ... شعاع خديك ياقوتا ومرجانا

وقد اتشحن برودا من ابريسيم (٢٥) وخز ، واستبرق (٢٦) وقز، كأنها رقراق السراب او برود الشباب ، وكأن الوانها اصيل شف عنه غمام ، او أشعة الشمس في اطواق الحمام .

غراء فرعاء مصقول عوارضها ... تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل
تسمع للحلى وسواسا اذا انصرفت ... كما استعانت بريح عشرق زجل
هركولة فنق درم مرافقها ... كأن اخصها بالشوك منتعل
اذا تقوم يضوع المسك أصورة ... والزنبق الورد من اردانها شمل

وعليهن الحلى من أربة (٢٧) وداح (٢٨) ، ويارج (٢٩) ووشاح (٣٠)، وقرم (٣١) وعضاد (٣٢) ، ونقرس (٣٣) وزراد (٣٤) ، وخاتم فارد (٣٥)، كأنه عطارد ، وسوار لماع كأنه الهلال في الذراع (٣٦) .

نكست قرطيك تعذيبا وما سحرا ... أخليت قرطيك هاروتا وماروتا

فالسيد دون شك قد اعجب بالمرقص قصرا وفناء وحجرات وأثاثا ورياشا ، كما افتتن بحسانه النواعم وغيده الفواتن ، فالتجربة صادقة حقا ، ولكن التعبير عن التجربة ، قد كبل عاطفته بكبول ثقيلة مما وعته الذاكرة من الفاظ وتشبيهات وأبيات عويصة ! فجاء وصفه صحيح اللفظ جامد الشعور ، تقرأ ما تقرأ فترى صورا والفاظا تعدها في مظانها من المعاجم وأدب المقامات والرسائل ، وتسأل نفسك عن احساس الكاتب وعن مقداره عمقا ونفاذا واحاطة فيرد عليك أسلوبه بما لا تحبه للسيد البكري !! لقد وصف المويلحي مشاهد الانس ومسارح المراقص ، بالشرق والغرب في حديث عيسى بن هشام فلم يرهقك بما ارهقك به السيد من آصار ، وهما بعد فرسا حلبة واحدة يجريان في ميدان واحد ؟

هذا هو شعوري الخاص نحو هذه القطعة الادبية من آثار السيد ، ولكن الاستاذ عمر الدسوقي يرى غير ما أراه فيقول عنها في كتابه نشأة النثر الحديث ص ١٨٠ :

« ومن طرائفه وصفه لمرقص في أحد قصور فينا كان قد دعي اليه، وابتدأ بوصف ليالي الشتاء في فينا ثم وصف دور هذا القصر وما به من أثاث ورياش واوان وتماثيل وتصاوير ، ووصف المرآة والانوار والاضواء ، والخرد الحسان ، وما عليهن من الوشى والاكسية والحلى ووصف الموسيقى والمرقص والسماط والشراب وقواويره وكيف انتهى الحفل في طلعة الفجر ووصف الفجر وطلوع النهار وصفا دقيقا رائعا ، ولولا ما شاب هذه القطعة من تلك الكلمات المعجمية لكانت من ابرع ما قيل في الوصف في نثرنا الحديث وهي وان دلت على شيء فانما تدل على حس مرهف ، وخيال محلق ، ومعرفة بأسرار اللغة ودقائقها مما جعله احيانا يأتي بأوصاف قديمة لا تتناسب مع الموصوف . ثم ذكر الاستاذ عمر الدسوقي ما سبق ان سطرناه من وصف الحسان النواعم واتبعه بقوله : « ونراه قد وفق في بعض اوصافه وأخفق في بعضها ، ولنذكر بعض ما أخفق فيه فاي فتاة تحب ان يوصف صدرها كطلع النخل او صدر الصقر وبأن عيونها كرام من بني ثعل ، او أسدين طرفاء وأسل ، تلك اوصاف قديمة منتزعة من بيئة مبتدية صحراوية لا تتناسب مع موصوفه وقد جرت على اسلات قلمه من محفوظه حتى غلبت شاعريته وازرت بها ، بينما نراه يوفق في كثير ، والموضوع كله جديد في الادب العربي » ؟

فالاستاذ الدسوقي يرى هذه القطعة من ابرع ما قيل في الوصف

من نثرنا الحديث لولا ما شابها من الكلمات المعجمية وهي في رأيه تدل على حس مرهف وخيال محلق ، وقد وفق في بعض اوصافه وأخفق في بعضها ! والطريف النادر الحق ان الاستاذ قد ذكر ثلاثة امثلة لما اخفق فيه الكاتب من التشبيهات ولم يذكر مثالا واحدا لما اجاد فيه ، فهل يكون ما تلا هذه الثلاثة جيدا رائعا لدى الاستاذ ! الحق انني أجد في هذه القطعة ما ينبىء عن ذخيرته اللغوية والبيانية ، ولكن ما ينبىء عن الحس المرهف والخيال المحلق ضئيل شحيح !!

هذا مثال واحد نذكره للدلالة على سطحية المعاني والافكار لدى السيد البكري ، وقد يعجب القارىء حين يرانا نستشهد على ذلك بما يصلح ان يكون شاهدا على خيال الكاتب وتصويره لا على مداه الفكري ضيقا وسعة ! والحق ان محاولة انفصال الصورة عن الفكرة لدى البكري مما يصعب على الناقد ، لان السيد لا يتصور ان يخلو سطر من سطوره او معنى من معانيه من تشبيه بلاغي ، فقد اعتقد ان الكتابة الفنية تشبيه واستعارة ! فكل ما يراه ويصفه مما لا بد ان يلحقه التشبيه ، وانا هنا حين أستشهد بقطعة المرقص اوجه اهتمامي الناقد الى افكارها العامة دون نظر الى ثيابها الوشاة ! وذلك ما لا بد منه في هذا النطاق ليتسنى لي ان اقول ان افكار السيد ومعانيه مما لا تغيب في اكثرها عن كل مطلع على الادب العربي ، اذ انه يقدس محفوظه تقديسا يسيطر على اسلوبه ، وقد طفت ذاكرته على مشاعره طغيانا اسكت ما لديه من طريف العواطف ومبتكر الاحاسيس الا ما استعصي لقوته وحيويته على القمع والاسكاتفاخذ يعلن عن نفسه على ابعاد غير متقاربة كما تقف امام النهر الجاري فتطرد مياهه صافية امام عينيك ثم ترى بين الفينة والفينة بعض اوراق وغصون تمر سريعا ، فتسترعي انتباهك ويسير النهر كعادته ليسمح بعد حين بمثل هذه الاوراق ليساقطها الهواء من أشجار الشاطىء على فترات فتأخذ مجراها كسابقتها !ولكنها مع ذلك شيء قليل محدود !!

نستطيع ان نمثل لما استعصي عن القمع والاسكات من افكار السيد الصائبة ، ومعانيه الهادفة ، بما جاء في رسالته عن العزلة من حديث ناقد للحكام وابناء الاعيان ، راث للعامة وابناء السبيل ، داع الى التكافل المتساند بين طبقات المجتمع وطوائفه فكل ذلك يدل على بذرات جيدة لمفكر صائب الرأي ، كان من المنتظر ان تؤتى اكلها الدائم لو غرست في ارض قوية خصبة ، وكانت حرية ان تفرد لها ـ ولامثالها النافدة ـ الصفحات والابواب فتأتي مستقلة الفصول ، بارزة العناوين ، لا ان تساق سوقا طي رسالة ادبية تكتب الى صديق ! وستتمهل امامها لحظات ، لنعرف عن يقين ان لدى البكري ما يقوله ، ولكنه تجاهل سبحات فكرة ، وضيق الخناق على خواطره ، فظلت تتواثب في قيودها اللفظية متطلعة الى النهوض .

نظر السيد الى الحاكم في عهد المستعمر ، وقد صار دمية تتحرك على المسرح لا عن طواعية مختارة بل لتؤدي دورها الذي الفه المحتلون، فتردد ما يلقى اليها من الامر ان لا فلا او نعم فنعم ، مع كبر وغطرسة، واعوان وخدام ، وحراس وحجاب فاذا رأى سادته الانجليز تضاءل وتصاغر ! وكان السيد قد عرك سياسة عصره وخبر ملتوياتها ومنعرجاتها، فسطر ما سطر عن خبرة واعية ، وبصيرة كاشفة ، ونطق بالصائب الصادق حين قال :

« اما الحاكم فاكثر ما لقيت امرؤ ان أونس تكبر ، وان اوحش تكدر ، وان قصد تخلف ، وان ترك تكلف ، اقع لا يضر ولا ينفع ، قبة جوفاء ، تردد ما يلقى فيها من النغم ، ان لا لا فلا او نعم فنعم ، القاب وأكاليل ، على شخص مرسح التمثيل ، فان طرحت الالقاب ونزعت هاتيك الثياب ، القيت تحتها المعجب العجاب .

أبالاسماء والالقاب فيكم   ينال المجد والشرف اليفاع

لا عدة ولا عدد ، وملك اقامه الله بلا رجال كما رفع السماء بغير عمد .

ويقضى الامر حين تغيب عبس   ولا يستأذنون وهم شهود

من ولا منة (٣٧) ، كالمهدر (٣٨) في العنة (٣٩) ، واعوان وخدام، وحجاب كحجاب (٤٠) ابي تمام .

على سرير كالنعش لارهب   يعلوه من هيبة ولا رهب

الى تيه وخلاء ، وعنجهية وكبرياء ، كأنه جاء برأس خاقان ، أو أدال دولة بني مروان او ان الايوان داره والهرمين آثاره ، وعصام بن شهيد حاجبه ، وعمرو بن بحر كاتبه والحجاج غلامه ، والحماسة كلامه ، رويدك ربما علت الجيف ، وانحط الدر والمصدف ، وارتفع في الميزان ، جانب النقصان ، على ان الانسان اذا لم يكن فيه غير جثمان ، فكلما علا يصغر لمن ينظر وربما حس الافن تعظيم الوتن ».

هذا حديث صادق ينبىء عن سداد ! ولو ذهبت تبحث عن علة سداده وتوفيقه وجدتها في ان السيد قد رجع الى احساسه يصدر عنه فيما يشعر به نحو الحاكم القائم . وقد كانت قوة الاحساس بحيث لم تدع وقتا للكاتب يصطاد فيه ما يحرص عليه من عويص اللفظ وحوشيه !! واذا نجا السيد من البديع المتكلف والحوش الغريب فقد اتجه الى نفسه يستنطقها ويفصح عنها ، ونفسه غنية ثرة تفيض في سماح ! وها هي ذي قد فاضت بالعذب القراح !

ثم ينتقل الى ابناء الذوات في عصره فيصدق الحديث عنهم حين يقول :

« واما ابناء السادة فان احدهم غادة ينقصها الحجاب ، ينظر في المرآة ولا ينظر في كتاب ، انما هو لباس على غير ناس ، كما تصنع الباعة مبهرم الثياب على الاخشاب .

وهل ينفع الوشي السحيب مضللا   وان ذكرت في القوم قيمته خزى

رماد تخلف عن نار ، وحوض شرب أوله ، ولم يبق منه غير أكدار ، آباء وأحساب وحال كشجر الثلجم (٤١) أحسن ما فيه ما كان تحت التراب ، (ترى الفتيان كالنخل ، وما يدريك ما الدخل) الى رطانه بالعجمة بين الاعراب ، ابرد من استعمال النحو في الحساب .

لو كان ذا حيلة لتحول ، وهل عند رسم دارس من معول .

وقع تواصوا بترك البر بينهمو   تقول ذا شرهم بل ذاك بل هذا

ميسر يلعب ، ومال يسلب ، وخدق يخدع ، وقلب يتبع ، وعطر ينفح ، وفرس يضبح .

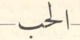
أبا جعفر ليس فضل الفتى   اذا راح في فضل اعجابه

ولا في فراهة برذونه   ولا في نظافة أثوابه

دنيا موجودة ، ونفس مفقودة ، وعقل اسير ، وهوى امير ، اليوم خمر وغدا امر ، فينهاه عنى بتملك اذا هو فقير يتصعلك ، قوت كيلا يموت ، ومن ايوان كسرى الى بيت العنكبوت » .

---

(١) البيت الواسع . (٢) جمع دارة . (٣) الطريق (٤) القصر . (٥) الجميلة ذات العنق الطويل (٦) تجر ذيلها عجبا (٧) طويلة الشعر (٨) ممتلئة (٩) اسبلت شعرها خلفها . (١٠) العبئة النفس (١١) الناعمة البيضاء (٢١)القوية القلب(١٣) الطبله المشوقة (١٤) ذات حاجب دقيق (١٥) براقة في العين(١٦) التي تتخاذل في موقفها (١٧) تسجد ذيلها (١٨) ثوب مزركش(١٩) ضعيف (٢٠) ثقيل منتفخ (٢١) متثد متراخ (٢٢) طلع النخلة(٢٣) مصور يوناني (٢٤) قوم يجيدون الرمي بالسهام (٢٥) الحرير (٢٦) الديباج (٢٧) القلادة (٢٨) السوار (٢٩) القلب والسوار(٣٠) كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان (٣١) ضفائر من شعر (٣٢) الدملج (٣٣) حلية على هيئة الوراد (٣٤) المخنفة(٣٥) منفرد(٣٦) منزل للقمر.(٣٧) القوة (٣٨) الفحل من الابل (٣٩) الحظيرة (٤٠) اشارة الى بيت له شهير ذكر في شرح الصهاريج (٤١) اللفت (٤٢) امرأة فاجرة(٤٣) كوكب (٤٤) اسم لهذا الكوكب (٤٥) شعراء مصر وبيئاتهم فيالجيل الماضي ص ٦١ (٤٦) في الادب الحديث الجزء الثاني ص ٢٩١ .



من كتاب « اعصار ونسمات » تحت الطبع في بيروت

جاد لي الدهر ، وقد كان ضنينا — وحباني ما تمنيت سنينا
قبلة « هائمة » من شفة — غضة جن بها قلبي جنونا
حل في قلبي منها أمل — بعدما ظل به الياس دفينا
كم تمنينا وعشنا بالمنى — ورجونا ، ويئسنا وشقينا
وظمأنا للهوى في منهل — ما وردناه ، فعشنا ظامئينا
بل تجرعنا كؤوسا من ضنى — مترعات فابتأسنا وضنينا
كم طوينا الليل شجوا او أسى — وقضيناه سهادا وانينا
نشتهي طيف خيال زائر — ونناجيه عصيا لن يلينا
نشهد النجم على احزاننا — ونناديه شفيعا ومعينا
ايه يا قلب .. ! لقد نلت الذي — خلته ، كالنجم نايا ، لن يكونا
عشت في الدنيا وحيدا مفردا — وقضيت العمر أسوانا حزينا
لا حبيبا ترتجيه للهوى — وتناجيه ، ولا خلا أمينا
قد أتاك « الحب » فاهنأ وابتهج — واملأ الدنيا غراما وفتونا
اجعل الحب هوى متقدا — وهياما ، وفنونا ، وجنونا
وانتقم عما مضى من زمن — كنت فيه تملأ الكون شجونا
لا، بل اهدأ، واعف، واسعد بالهوى — واجعل الحب سلاما وسكونا

مصر الجديدة — محمود الشرقاي

أما موازنته الشجية بين الفقراء والاغنياء فمن أنفس ما كتب الرجل وابدع وانه ليضرب على أوتار القلوب حين يسمعها هذه الالحان.

« فبينما ترى قصورا وثراء ، وحبورا وسراء ، وعربات تترى ، يعدو امامها السليك والشنفرى ، ويقودها داحس والغبراء ، على بساط الغبراء ، وخراج قرية او قريتين يذهب في لهو ليلة او ليلتين، تجد ارملة صناعا ، وايتاما جياعا وشيخا يعمل وهو في أرذل العمر ، يقعده العجز والفقر ، او عذراء كادت تبيع عرضها للاحتياج ، او مريضا عاجزا عن العلاج ، وبينما ترى (٤٢) رذاحا في جيدها عقد كأنه فرود (٤٣) حضار (٤٤) ، وفي اخمصها نعل من نضار ، ترى بائسة في عنقها عقد من دموع ، وفي بيتها فقر وجوع ، حال تطرف العيون وتثير الشجون .»

ثم يكرر هذه الالحان المؤسية حين يعظ الغني الشحيح قائلا .

« اتظن ان الدرهم حبيس مستقر ، ان خرج فر ، ام صديق منك واليك ، ان لم تحرص عليه لا يحرص عليك ، او ان بيت المال بيت قريض ، ان نقص منه حرف ادركه التقويض ، او ان شيئا عليه آية من القرآن او صورة لسلطان حري ان يكون تعويذة من لجين تدخر لدفع العين ، ليس ، ام اردت ان تعيش كدودة القز او تكون كطلسم على كنز ، حتى اذا قضيت ، ومضيت ، القى بنوك ما ثمرت في تلك الهاوية ، وما ادراك ماهية نار حامية ! وأطعم بناتك شحمة مالك لغير آلك » !!

هذه الصيحات الصادقة كانت موضع الاهتمام لدى ناقدي البكري ومؤرخيه فالاستاذ العقاد يعدها من نثره المجود ويقول في التعليق عليها (٤٥) :

« ففي هذه الفقرات وفي امثالها من نثره المجود موضوعات شعر ولفتات شاعر ولكن الصنعة افسدت الطبيعة ، والمحفوظ جنى على الملحوظ ، او لك ان تقول انك تلمح هنا مجلس شاعر يضرب مواضع الماء من الارض ولكنه يقف عند حجارة من التقليد ولا ينفذ بعدها الى النبع المخبوء على مدى اصبعين من مجسه !!»

أما الاستاذ عمر الدسوقي فيفصح عن بواعث هذه الصيحات حين يقول (٤٦) :

« ان البكري في هذا ثائر على أوضاع شاذة في مصر مع انه من ابناء الخاصة الذين شبوا في حضن النعيم، ولكنه كان ذا نظرة ثاقبة ، وفكر سديد ، وقلب رحيم وعقل حكيم ولعله رأى من رحلاته الى أوروبا مبلغ ما وصل اليه الناس من المساواة ، وان ابناء الخاصة يعملون لنفع امتهم كما يعمل ابناء العامة ، وربما كانت آراؤه هذه هي التي تأذى منها عباس ، فنظرته الى الحكام والى ابناء الخاصة لم يكن يرضى عنها عباس وهو الذي اشتهر بجمع المال وبعداوته للنظم الديمقراطية اذ حرم الامة مجلسا نيابيا صحيحا » .

هذا قوله ، اما انا فاقول ان السيد البكري لم يكن بدعا في منحاه الاصلاحي ونقده الاجتماعي فقد قرأ نفثات جمال الدين ومقالات اديب اسحق ، وخطب عبدالله النديم واكثرها يتجه وجهة الاصلاح السياسي والاقتصادي ، ثم تأمل مني قومه فرأى من ألاعيب الساسة وخلاعة ابناء الخاصة وغفلة العامة ما دفعه الى ان يصدر نفثة المصدور ! وهي بعد أكيدة الصلة باحساس رجل ديني كبير .

الفيوم ـ دار المعلمات — محمد رجب البيومي

بدأت هذه القصة في قرية روتا . وروتا هي صغرى القرى الشقيقات الساحرات اللائي يتألف منهن خليج غواديكس شبه الدائري الواسع . وعلى الرغم من ذلك فانها لم تعدم من يضع عينه عليها ، فان دوق أوسونا ، بصفته دوق آركوس كذلك ، يفاخر بانها احدى لآلىء تاجه الثمينة ، وفيها يقوم قصره الذي ورثه عن آبائه ، وهو قصر اعرفه جيدا بحيث استطيع ، لو اردت ، ان اصفه حجرا حجـرا .

غير انني ههنا لا اريد ان اتحدث عن القصور، ولا عن الدوقات ، بل بالاحرى عن الحقـول والفيطان التي تحيط بروتا ، وبصفة خاصة عن بستاني بائس جدا سندعوه (العم مجازف) وان لم يكن هذا اسمه الحقيقي ، كما يبدو.

ان حقول روتا – ولا سيما غيطانها – خصبة جدا ، فهي تغل للدوق عدة الوف من أكيـال الحنطة ، وتزود كل مجموعة تلـك القـرى بالنبيذ – والناس هناك قليلو الاكتراث لماء الشرب ، ولا سيما ان الماء عندهـم سـيء للغاية – وزيادة على هذا كله تغل من الخضار والفواكه ما يكفي لتزويد مدينة غواديكس ، وغالبا ما تزود بها مدينة هويلفا ايضـا ، واحيانا مدينة اشبيلية كذلك. واهم منتوجاتها البندورة والكوسا ، فان نوعيتهما الممتـازة ، ووفرتهما المدهشة ، وارتفاع اسعارهمـا الدائم ، لما يفوق كل تصور . وهذا ما جعل اهل اندلوسيا الجنوبية يطلقون على أهل روتا اسم (كالاباسيروس ، وتوماتيروس) أي : باعة الكوسا والبندورة ، وكان هؤلاء يقبلون هذه التسمية مباهين فخورين بقدسية العمل وشرفـــــه .

وهم على حق في المفاخرة بهذه التسمية متى عرفنا ان ارض روتا الخصبة ، التي تقدم كل هذه المحاصيل للاستهلاك والتصدير ، وتغل ثلاث مرات في العام او اربعا ، ليست ترابا طينيا ولا ما يشبهه ، بل هي رمل بسيط خالص ، يتصل مباشرة بالمحيط الهادر ، وتمزقه رياح الغرب الهوج ، وينتشر في منطقة روتا كلها كامطار الرماد التي تسقط الحنطة ، وتزود كل مجموعـة تلـك القـرى على المناطق المحاذية لبركان فيزوف .

غير ان جحود الطبيعة هناك يكافئه الانسان فوق ما يستحق من نشاطه ومن عمله الحثيث المتواصل . فلست اعرف – ولا اظن ان في الدنيا – فلاحا يعمل بمثل همة فلاح روتا . هناك لا يروي الفيطان والحقول ولو خيط خفيف من الماء العذب ... ولكن ماذا يهم ذلك ؟... ان الكالاباسيرو – بائع الكوسا – قد جعل أرضه كالغربال لكثرة ما حفر فيها من الآبار التي يستخرج منها ، بواسطة النواعير والدواليب ، في الغالب ، ذلك الرحيق الثمين الذي يقوم مقام الدم للخضار .

والرمل هناك تعوزه عناصر الخصب التي تتوافر في الارض الترابية ... ولكن مـاذا يهم ذلك؟...ان التوماتيرو – بائع البندورة – يقضي نصف عمره في البحث وفي جمع العناصر التي يمكن ان تفيد في التسميد ، فيحول حتى الطحالب البحرية الى سماد . ومتى امتلك ابن روتا عنصري السماد والزبل النفيسين شرع يعمل بصبر واناة . قد لا يفلح الحقل كله – اذ ربما لا تتيسر له عناصر الخصب الكافية – بل يسمد منه في البداية دوائر صغيرة ، قد لا تزيد الواحدة منها على حجم الصحن ، وفي كل من تلك الدوائر يغرس بذرة بندورة او كوسا ، ثم يمضي في سقيها بابريق صغير كأنه يسقي طفلا .

ومن بدء الغرس حتى اوان الجني يظل يتفقد يوميا كل نبتة تنمو في تلك الدوائر ،

سجل الام وابنتها

للكاتب الاسباني بيـدرو انطونيـو دي الاركـون

ترجمها عن الايطالية: عيسى الناعوري

ويداعبها بلطف وانتباه لا يعادلهما الا شغف الفتيات بآنية ازهارهن . انه يوما يضيف الى هذه الدائرة قبضة سماد ، ويوما يسقي تلك برشة ماء ، وحينا ينقي غراسه من الديدان والحشرات الضارة ، وحينـا آخر يعنـى بالمريضات منها ، ويضع الركائز للضعيفات والمكسورات ، وتارة يغطي بالقصب والاوراق الجافة تلك التي لا تطيق اشعة الشمس ، او المعرضة اكثر من سواها لرياح البحر ،وطورا يحصي الجذوع والاوراق والازهار والثمار التي تحملها النباتات المبكرة والوشيكة النضج، فيخاطبها خطابا وديا ، ويداعبها ، ويقبلها ، ويباركها ، حتى انه يضع لها اسماء معبـرة ليميزها بها ، وليستحضر كلا منها في ذهنه.

من دون مبالغة : ان البستاني في روتا مضرب المثل – وقد سمعت هذا القول مرارا في روتا – فهو يلمس بيده كل عرق من عروق البندورة ينمو في بستانه ما لا يقل عن اربعين مرة . وهذا ما يفسر لنا لماذا تنحني قامات اصحاب الفيطـان فـي تلـك الجهات عنـد شيخوختهم ، حتى تكاد تلامس ركبة الواحد منهم ذقنه ... ان هذا لهو الوضع الـذي قضوا عليه حياتهم الكريمة الجديرة بكـل احتـــرام .

كان العم مجازف ينتمي الى هذا النوع من اصحاب الفيطان .ولقد بدأ ظهره ينحنـي في عهد الحادثة التي سأرويها الان : كـان عمره حينئذ ستين عاما ، قضى اربعين منهـا يعمل في الفيطان المحاذية لشاطىء كوستيلا .

في ذلك العام كان قد تعهد بعض الكوسايات المدهشة . وكانت هذه الكوسايات كبيرة كأنها كرات زخرفية في حواجز جسر تذكاري .وقد بدأت تنضج وتأخذ في الداخل والخارج لونا جميلا كلون البرتقال . وهذا يعني ان حزيران قد جاء مبكرا. وكان العم مجازف يعرفهـن معرفة تامة باشكالهن ، ويعرف مدى نضج كل واحدة منهن ، بل انه ليعرف كـلا منهـن باسمها – وعلى الاخص تلـك الكوسايـات الاربعين النموذجية الاكبر حجما ، والاشـد بريقا ، والتي كانما تقول كل واحدة منهن : اطبخوني ! – وكان يمضي النهار كله ينظـر اليهن برقة ، ويناجيهن كئيبا :

– لا بد ان نفترق يوما ، وفي وقت قريب.

واخيرا صمم في احد الايام على التضحية. وبعد ان عين الكوسايات الناضجة من بيـن تلك الثمار القرعية اللذيذة التي كلفته الكثير من الجهد والقلق والانتظار ، نطق بالعبارة الرهيبــــة :

« غدا ساقطف هذه الكوسايات الاربعين ، وساحملها الى سوق غواديكس . ألا ، هنيئا لمن ستطلع من نصيبه !»

وعاد الى منزله ثقيل الخطى ، وقضى الليلة في مثل مخاوف الوالد المقبل على تزويـج ابنته في اليوم التالي . فقد كان أحيانـا يتنهد دون ان تعرف اجفانه النوم ويقول :

– يا لكوساياتي المسكينات !

ثم يفكر قليلا ، وينتهي الى القول :

– وماذا يمكنني ان افعل غير ان ابيعهن ؟ انني لهذا غرستهن وتعهدتهن ! وسأربح مـن بيعهن خمس عشرة قطعة من النقد على الاقل.

بعد هذا يمكننا ان ندرك كم كانت دهشته، وكم كان غضبه ويأسه حينما عاد في الصباح الى الفيط فوجد الكوسايات الاربعين قـد اختفت !.. اختصارا للكلام سأذكر ان المأساة في نفسه قد بلغت قمتها ، كاليهودي فـي رواية شكسبير ، فأخذ يهذي بكلمات (شيلوك) الرهيبة عينها ، التي يقال ان الممثل الانكليزي (كامبل) قد بلغ في ادائها منتهى الاجادة ...



ـ آه لو وجدتك ! لو استطعت ان اعثر عليك !

ثم جعل العم مجازف يفكر في هدوء ، فادرك ان كنوزه الغالية لا يمكن ان يجدها في روتا ، فما يمكن ان يبيعها السارق ههنا دون ان يخشى معرفة صاحبها لها ، كما ان أسعارها في روتا زهيدة جدا .

ـ يخيل الي انني أراها . انها في غواديكس !. (هكذا قال في ذهنه) . الحقير، السافل ، اللص ! لا بد انه سلبني اياها امس ما بين التاسعة والعاشرة ليلا ، ولا بد ان يكون قد هرب بغنيمته في الساعة الثانية عشرة ليلا في مركب البضائع . سأسافر اذن الى غواديكس هذا الصباح في مركب المسافرين ، وسيكون من المستغرب جدا ان لا امسك باللص الحقير وأسترجع منه بنات نعبي !

وبقي مع هذه الخواطر عشرين دقيقة على أرض الكارثة ، كأنما يداعب العروق الشعراء المجردة من ثمارها مؤاسيا ، او يرثي الكوسايات الضائعة ، او يعد لائحة اتهام لدعوى يفكر في اقامتها . وفي نحو الساعة الثامنة غادر المكان متوجها نحو رصيف الميناء .

كان المركب يستعد لنشر الاشرعة . وهو مركب بسيط ، يغادر الميناء في الساعة التاسعة تماما من صباح كل يوم حاملا المسافرين ، بينما يسافر مركب البضائع في الساعة العاشرة من كل ليلة حاملا الخضار والفواكه . ويدعى المركب الاول « مركب الساعة » لانه في ساعة واحدة ـ وأحيانا في اربعين دقيقة فقط، اذا كانت الريح مؤاتية ـ يقطع المسافة التي تفصل قرية آركوس القديمة عن مدينة هرقل ـ غواديكس ـ التي لا تقل عنها قدما .

كانت الساعة العاشرة والنصف صباحا حين وقف العم مجازف امام بسطة خضار في سوق غواديكس ، وراح يقول لرجل بوليس يرافقه متبرما :

ـ هذه هي كوساياتي! أوقفوا هذا الرجل! ويشير الى البائع ..

وأجاب البائع دهشا غاضبا :

ـ يوقفونني أنا ؟ هذه كوساياتي .. انا اشتريتها بمالي !

فرد العم مجازف قائلا :

ـ هذا الكلام يمكنك ان تقوله لرئيس البلدية !

ـ كلا !

ـ نعم !

ـ لص !

ـ مختلس !

فتدخل رجل البوليس قائلا بهدوء :

ـ تخاطبا بكلام اكثر تهذيبا ، ايها الاحمقان! ان الرجال لا يجوز ان يفقدوا احترامهم بهذا الشكل ! ثم فصل بينهما بدفشة على صدر كل منهما بقبضة يده .

في تلك الاثناء هرع أناس كثيرون ، وظهر كذلك حالا في المكان وكيل القاضي المكلف بمساعدة البوليس في الاسواق العامة ، وهو يلقب بقاضي الحالات الطارئة . فسلم البوليس القضية اليه .

ولما كان القاضي سلطة شرعية ، وقد اطلع على تفاصيل النزاع ، فقد سأل بصوت رصين ووقور :

ـ ممن اشتريت هذه الكوسايات ؟

ـ من العم تيتسيو ، التاجر في روتا .

فصرخ العم مجازف قائلا :

ـ لا بد انه هو ! لا شك في انه هو ! ان بستانه لم ينتج له شيئا كافيا لانه بستان ميت ، فعمد الى سرقة غيطان الجيران !

وتابع القاضي الاستجواب ، موجها كلامه الى البستاني العجوز :

ـ بعد ان صدقنا ادعاءك انه سرق لك أمس اربعون كوساية ، من الذي يستطيع ان يثبت لك ان هذه ، وليس غيرها ، هي كوساياتك المسروقة ؟

فاجاب العم مجازف :

ـ شيء عجيب ! انني أعرفها كما تعرف انت بناتك ، ان كان لديك بنات ! الا تدري انني ربيتهن بنفسي؟ انظر هنا : هذه اسمها (ممبروتا) ، وهذه (كورباشوتا) وهذه (روسيتشا) ، وهذه (بانتشونا) ، وهذه (منويلا) وقد دعوتها كذلك لانها تشبه ابنتي الصغرى كثيرا ..

ثم انخرط الشيخ المسكين في بكاء مرير..

فرد القاضي قائلا :

ـ هذا كله حسن ، غير ان القانون لا يكتفي بأن تعرف انت كوساياتك . لا بد من ان تقتنع السلطة كذلك بوجود المال المسروق، وان تتثبت منه بادلة لا تنقض .. ايها السادة، هذا ليس مجالا للضحك .. انني محام !

وبين دهشة المتفرجين قال العم مجازف :

ـ حسنا ، اذن . سترون الان جميعكم كيف سأثبت لكم ، دون ان أتحرك من هنا ، ان هذه الكوسايات قد نمت في غيطي !

ثم القى على الارض بقجة كان يحملها ، وطوى ركبتيه تحته وجلس فوقهما ، وراح يفك عقدة منديل معه بهدوء وثقة . وكان عجب القاضي ، والبائع الاخر ، والمتفرجين جميعهم يتزايد في اثناء ذلك باستمرار ، وجعلوا

يتساءلون :

ـ أي شيطان سيخرج من منديله ؟

في تلك اللحظة انضم الى الجمع فضولي جديد ليرى ماذا يجري في وسطهم . فلما رآه البائع الاخر صرخ قائلا :

ـ الحمد لله!لقد جئت في الوقت المناسب، يا عم تيتسيو ! ان هذا الرجل يؤكد ان الكوسايات التي بعتني اياها مساء امس ، والموجودة الان هنا تسمع كلامنا ، قد سرقت منه ، فاجاب انت !

فامتقع وجه القادم حتى غدا كالشمع ، وهم بان ينصرف ، ولكن القريبين منه أمسكوا به وحالوا دون انصرافه ، والقاضي نفسه امره بالبقاء .

اما العم مجازف فقد واجه اللص بقوله :

ـ سترى الان كيف تكون فضيحتك !

فاسترد العم تيتسيو دماءه الباردة ، وأجاب :

ـ انتبه جيدا لما تقول ، لانك اذا لم تستطع اثبات ادعائك ـ ولن تستطيع ذلك بكل تأكيد ـ فسأرسلك الى السجن لقاء هذا التحقير والقدح. ان هذه الكوسايات كانت لي ،وقد تعهدتها في غيطي عينه ، ككل ما حملته هذا العام الى سوق غواديكس . ولن يستطيع ي انسان ان يثبت عكس هذا .

فعاد العم مجازف يقول ، وقد انتهى من فك منديله ، ونشره على الارض : ـ سترى الان !

عند ذاك تناثرت على الارض كمية من عروق الكوسى ما تزال خضراء يقطر منها الرحيق ، بينما كان البستاني العجوز ما يزال جالسا على ركبتيه يضحك مقهقها بملء الحبور ، ويوجه الخطاب التالي الى القاضي والمتفرجين:

ـ ايها السادة ! ألم يحدث قط ان دفعتم ضرائب ؟ أو لم تروا السجل الاخضر الكبير الذي يحمله الجابي ، والذي يقطع منه الايصالات ، ويترك لها اصولا موصولة به لكي يمكن الرجوع اليها للتأكد من صحة الايصالات او زيفها ؟

فاجاب القاضي مؤكدا :

ـ هذا الذي تعنيه يدعى « سجل الام وبنتها » .

ـ حسنا . هذا هو بالفعل ما احمله الان هنا ... سجل الام وبنتها في غيطي .. او الاروماث الصحيحة التي كانت هذه الكوسايات معلقة بها قبل ان يسرقوها من غيطي . ليس عليكم الا ان تنظروا . هذه الارومة كانت لهذه الكوساية .. هل فيكم من يستطيع ان يشك فيها ؟ وهذه ايضا ، انظروا .. كانت لهذه الكوساية .. وهذه اكبر قليلا .. انها لتلك التي هناك .. تماما ! وهذه لهذه ..

اسرار صامتة

٭

لا تقولي انما صنتك في قلبي واغمضت على الحب جفوني
وزرعت الليل وردا وأذبت الصمت لحنا فوق أطلال شجوني
وانا ادعوك من خلف الليالي ، خاطرا يلمع من بين ظنوني
ويبث الحب في اعماق نفسي ويزيح الهم من شجو أنيني
ويضيء الافق من حولي ، يرش الافق شلالا شفيف الخطوات
فاري فيه خيالي وهو ذاتي ، ضارع الهمسة مشبوب الصلاة
ويذوب الهمس بين الريح .. لا أصداء غير النوح في كهف حياتي
وانا اشكو لسمع الليل ، كل الويل ، هل تسمع يا حبي شكاتي ؟
ألاني قد سترت الحب في قلبي عن الناس تسميني جمادا ؟
ألاني قد عشقت الحب من أجلك أقتات مع الهم سهادا ؟
اضفر الفجر خيوطا ، ريثما القاك في ثوبي فيرتد رمادا
واذا الومضة في فجري كظل الامس صمتا وسوادا
ما تقولين ؟ ، أما كنت مع اللقيا تضيفين الى الهجر صدودا
واذا ظللنا الحب ، وطير الايك يهدينا من الايك ورودا
وشذى العطر يذيب الحب في أنفاسنا فجرا من النور وليدا
فاذا أنت ـ على الرغم ـ تصبين على الافق من الفكر شرودا
وتغيبين كأني لا تساقيك عيوني وأناجيك بهمس
وتطوفين مع الافق ولا ألقى مع الصمت سوى أشلاء نفسي
بعثرتها رعشات القلب في دنيا غرامي بعدما عربد كأسي
ها هنا عاش غرامي ، وها هنا كان وجودي ، ها هنا مرقد انسي
لا تقولي انما كنت أداري عن عيون الناس ما كنت أعاني
حينما كنت مع الليل أناجيك خيالا وتباشير أماني
واصوغ النجم لفظا شاعريا ، والهلال الغصن مزمار أغاني
وأهازيج فؤاد طاهر قد قدس الحب بمحراب هواني
ربما كان صوابا ما تقولين ، فهل كنت من الحب قريبة ؟
لم لم ألمح في عينيك آثار الهوى ان كنت حقا لي حبيبة ؟
كنت ارجو ان ارى حبك فجرا قبلما اشهد في يومي غروبه !
قبلما يؤسفني مصرعه من غير ان يفرش بالورد دروبه !

القاهرة يوسف نوفل

وتلك لتلك .. وهذه لهاتيك !

كان يقول ذلك ويطبق كل ارومة يحملها على مقطع احدى الكوسايات التي هناك ، والمتفرجون يرون في دهشة بالغة كيف كانت تنطبق الارومات الشاذة المضحكة على الكوسايات التي فصلت عنها ، وتنسجم معها انسجاما طبيعيا دقيقا ، بحيث تبدو بعد اتصالها كآثار الجرح التي تكاد تلتئم .

فهبط المتفرجون الى الارض ، وفيهم رجل البوليس ، والقاضي نفسه ، وراحوا يعاونون العم مجازف في تلك البينة الفريدة ، وهم يهتفون في وقت واحد في حبور صبياني :

ـ صحيح ، صحيح ! لا شك في هذا ! انظروا ، هذه الارومة لهذه الكوساية .. وهذه لتلك .. وهاتيك لهذه..وهذه لهاتيك!

واختلطت هتافات الكبار ، وصفير الصغار ، وصياح النساء ، ودموع الظفر والفرح في عيني البستاني العجوز ، واللكمات التي راح رجال البوليس يكيلونها للمجرم الذي ثبتت جريمته ، كأنه لم يعد لديهم صبر ليحملوه الى السجن .

ومن العبث ان نذكر ان رجال البوليس قد تلذذوا بارغام العم تيتيو على رد ثمن الكوسايات الى البائع الذي اشتراها منه ، وهذا رده بدوره الى العم مجازف ، فعاد هذا مسرورا الى روتا يحمل معه خمس عشرة قطعة من النقود ، ويردد طوال الطريق :

ـ كم كان منظرهن جميلا في السوق ! ليتني اخذت منهن (منويلا) لكي آكلها هذا المساء ، ثم احتفظ ببذورها !

عمان عيسى الناعوري

ما لتلك الرؤى

●

يا جزى الله عاديـات الليالـي ردن سهدي على النوى واعتلالي
طال شوقي الـى الديار فايـن الاهل مني واين عهـد الوصال
اين ابـن الديار انقـع فيهـا غلتي مـن وريف تلـك الظلال
كلمـا شمت للسـلو سبيـلا عادني الذكر يستحـث ارتحالـي
قد مللت الحيـاة اداب سعيـا في محيط أضاع وزن الرجـال

* * *

مـا لتلـك الرؤى ترفرف حولي حيثمـا سرت او حططت رحالـي
وخيـال الديـار يلعب فيمـا بيـن جفنـي مـاثـلا بالتوالـي
ولصوت الاحباب يطـرق سمعي في هجوعي ، ويقظتي ، وابتهالي
ورياح الشكـوك تدلف نحـوي بغيوم مـن الهمـوم الثقـال
مـا عجيب علـي هذا ونفسي تانف العيش دون ذاك الخيـال
مـا سالت الزمـان عـودي الا كان منـه الوجـوم رد السؤال
جففت دمعنـا الليالـي فرحنا ننسل الدمع مـن عيون الليالـي

* * *

ليت لي فـي نواي اجنحة النسر لاطوي الجبـال اثـر الجبـال
امتطـي غارب الريـاح وارقـى صهوات الاثيـر حتـى الاعالـي
ثـم الوي الجناح للارض خفضا هاويـا فـوق تلكم الاطـلال
أغمـر الارض والسمـاء حنانـا مستعيدا ذكرى الليالي الخوالـي
عهد كنـا نغشى التـلال لنلقى مطلع الشمس فوق تلـك التـلال
انتحي تربـة هنالـك فيهـا نامت الاسد بعـد حـرب سجال
يـوم هبت شبولـة الشام تسقي غوطة الشام بالدمـاء الغوالـي
استثير الارواح تبعـث فينـا وثبـة تستـرد عهـد النضـال
عـل ذاك الابـاء يوقـظ قومـي مـن سبات مهـدد بالوبـال
ان ثارا اعتقـد تعاهدوه يناديهم لحشد الرجال اثـر الرجال

* * *

ايـن ايـن الاسود تـدرأ عنـا زعزع البغي فـي سواد الليالي
تنشـط العـرب للتوثب كيمـا تبلـغ الثار مـن عبيـد الضلال
عربدي اليوم يا دنى الغرب مـا شئت فعهد اليهود رهـن الزوال
« نحن مـن شعلة الجحيم خلقنا لاولى الجور لا مـن الصلصال »

خوخوي ـ الارجنتين

فائق جبور

الشيخ المظفر ـ نقولا الخوري

المطران جرمانوس معقد

بقلم البدوي الملثم

* * *

١ ـ الشيخ عبد القادر المظفر

ولد في بيت المقدس عام ١٨٨٢ وتلقى دروسه الابتدائية والاعدادية فيها على مشاهير علمائها امثال الشيخ طاهر ابي السعود والشيخ علي الخطيب وانتسب الى الازهر الشريف واشتهر بين لداته بذلاقة اللسان وسرعة الخاطر وارتجال الخطب ، وعاد الى مسقط راسه ليزاول التجارة وليعمل في الشؤون العامة ، وفي العهد التركي كان عضوا بارزا في « جمعية الاتحاد والترقي » ورئيسا لـ « جمعية الاخاء والعفاف » المقدسية .

وفي حملة القتال التي قادها «جمال» السفاح لطرد الانكليز والاستيلاء على قناة السويس اناط العسكريون الاتراك شؤون الدعاية للجيش التركي والحض على التطوع في صفوفه بالشيخ المظفر لذلاقة لسانه وتأثيره في سامعيه اذ عرفه اولئك المسؤولون خطيبا شعبيا «مهيجا» . فرافق الحملة مع لفيف من العلماء في عدادهم الدكتور عبد الحميد سعيد ، وهناك الهب المناضلين والمتطوعين بخطب حماسية دعا فيها الى دعم الدولة العثمانية ومؤازرتها ومناجزة الانكليز وحلفائهم .

وبعد الفشل الذي منيت به حملة الاتراك على القتال عاد المظفر الى فلسطين وسورية داعيا لمحاربة الانكليز ومساندة الدولة العثمانية خشية دمار دولة الخلافة وانهيارها ، وله انداد في هذا الميدان امثال الامير شكيب ارسلان والشيخ اسعد الشقيري والشيخ عبد العزيز شاويش وغيرهم .

وبعد ان نفذ جمال السفاح احكام الاعدام بالعشرات من احرار العرب وساستهم تفاقمت النقمة عليه في شتى الاقطار العربية ، وحدا من لهبها اقال المسؤولون الاتراك « جمالا » الكبير من قيادة الجيش الرابع لعسفه وطغيانه وبطشه وعينوا « جمالا » (١) الصغير قائدا عسكريا مسؤولا فعمد هذا الى سياسة اللين والرحمة مع العرب فعين الشيخ المظفر مفتيا للجيش الرابع خلفا للشيخ اسعد الشقيري فاستغل المظفر مركزه الديني هذا فسعى سعيا حثيثا مع « جمال » الصغير وتحسين بك والي سورية لاعادة العائلات العربية التي شردها « جمال » الكبير وزبانيته الى مجاهل الاناضول لتواجه الصقيع والمجاعة هناك فيقضي افرادها نحبهم هناك .

وسعى المظفر للعفو عن الاحرار العرب المعتقلين في سجون دمشق وعاليه وغيرها امثال الاستاذ محمد الشريقي والشيخ سعيد الكرمي ونجيب بليق (٢) ، فاثمرت مساعيه خيرا ، والى هذا اشار الاستاذ الشريقي في قصيدة مطولة له منها :

قف في المرابع واستمع انشادي ... فالشعر قد يروي غليل الصادي

الى ان يقول :

كم من فتاة في الربوع ومطفل ... لبست من الباساء ثوب حداد
شربت كؤوس البؤس بعد نعيمها ... صرفا بمحض سعاية الاوغاد
لما قدمت الشام حين حجا بها ... وانجاب عنها ليل كل فساد
تلك المروؤة لا مروؤة مثلها ... صون «الرباب» و «زينب» و«سعاد»
أنت الذي اغلى الدموع وصانها ... وسواك ارخصها بسوق مزاد
يا بعد بين « يد » لكفكف ادمعا ... و « يد » تشق حشاشة الاكباد !

وفي عام ٩١٨ هزم الاتراك والالمان في الحرب العالمية الاولى فلاذ الشيخ المظفر ببرلين لاجئا سياسيا مع نفر من رجالات العرب كالامير شكيب ارسلان وغيره .

وبعد قيام الحكم العربي في سورية والاردن برئاسة المغفور له فيصل الاول عاد المظفر الى دمشق وتولى ادارة « النادي العربي » والهب الانفس بخطبه الحماسية ودعا العرب الى مناجزة فرنسا الطامعة ببلادهم وكان النادي العربي مسرح نشاطه !

وفي اعقاب معركة ميسلون وتفرق احرار العرب زار المظفر اقطارا نائية وما لبث ان عاد الى فلسطين فاختاره سماحة الحاج امين الحسيني ، رئيس المجلس الاسلامي الاعلى ، ليرأس وفدا فلسطينيا زار الهند لجمع التبرعات لاصلاح الصخرة المشرفة .

وبعد ان قامت حكومة « الشرق العربي » في الاردن عاد المظفر الى فلسطين وعمل في الحركة الوطنية وكان على صلات حسنة بالمغفور له الملك عبدالله بن الحسين وذات يوم غادر فلسطين هربا الى عمان ولجأ الى حمى الملك الهاشمي فحال دون اعتقال البريطانيين له .

واشترك المترجم له في الحركة القومية بفلسطين وكان احد ممثلي القدس العربية في المؤتمرات الوطنية التي شهدتها كبريات المدن الفلسطينية ، وفي السابع والعشرين من شهر تشرين الاول ١٩٣٣ قاد رجال الحركة الوطنية الفلسطينية ، والمظفر في طليعتهم ، مظاهرة كبرى في يافا من الجامع الكبير وعلى راسهم المغفور له موسى كاظم باشا الحسيني رئيس اللجنة التنفيذية العربية فاعتدى البوليس البريطاني على رجالات الحركة بهراوات غليظة ، وشج احدهم رأس كاظم باشا فنقل الى المستشفى واعتقل رجال البوليس بقية الزعماء واودعوهم السجن حتى يقدم كل منهم كفالة (حسن سلوك) ، لكن المظفر لم يستجب لهذا المطلب وابى ان يسجل عليه عار

(الكفالة) بل آثر السجن والاعتقال مدة ستة شهور ، والى هذا الموقف المشرف اشار المرحوم ابراهيم طوقان شاعر فلسطين في قصيدته المسماة « الشيخ المظفر » بقوله :

انظر لما فعل (المظفر) انه   نفع القضية غائبا لم يحضر !
احيى القلوب ، ودونهن ودونه   غرف الحديد ، وحاميات العسكر
عرضوا (الكفالة) والكرامة عنده   عبثا ... وهل عرض يقاس بجوهر؟
ورأى التحير في التخير سبة   ففدى كرامته بـ « ستة اشهر »
لم يخل ميدان الجهاد بسجنه   فلقد رماه بقلبه المتسعر
ولكم خلا بوجود جيش زاخر   يمشي اليه بخطوه المتعثر
ان (المظفر) من حديد جسمه   فيما أرى ، وجسومهم من سكر !

واشتهر الشيخ المظفر بالمرح والدعابة وتوقد الخاطر وكان مطلعا على الادب العربي قديمه وحديثه ، وفي عام ١٩٤٥ زارني في عمان مهنئا بتحرري من « الوظيفة » واغلالها وانشدني بيتين لابي الطيب المتنبي ، لم اجدهما في نسخ ديوانه ، فيهما حض على التجارة وارتياد آفاقها .

وفي يوم الاثنين الواقع في الرابع والعشرين من شهر شعبان ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩) لحق بربه ودفن في مقبرة باب الساهرة بالقدس .

نماذج من شعره : والشيخ المظفر ، بالاضافة الى غزارة محفوظه ، شاعر مطبوع على الدعابة وخفة الروح ، وبينه وبين المغفور له الملك عبد الله بن الحسين والمغفور له احمد حلمي باشا عبد الباقي مساجلات ومطارحات شعرية ، ومن اخوانياته التي وعتها الذاكرة ما يلي :

في ربيع عام ١٩٤٥ هبط يافا المغفور له احمد حلمي باشا مدير عام بنك الامة العربية لتفقد شؤون بنك يافا ، يصحبه السيد صدقي الطبري والشاعر مصباح العابودي والمرحوم سليم عبد الرحمن ، فقرروا « سرا » نكبة الشيخ المظفر بوجبة الفداء ! وعند الظهيرة غزوا بيته في يافا وعلى رتاج الدار انشد حلمي باشا قوله :

قل للمظفر ان اتيت رحابه   وحللت في ذاك الجناب الامرع
يا طارد الاضياف ان طلبوا القرى   قد جئت ضيفا انما « الزاد » معي!

ورد المظفر بديهة وارتجالا بقوله :

اهلا بمقدمك السعيد ومرحبا   ما كنت بالضيف الثقيل لتطردا
البيت بيتك، ان حللت به ضحى   واذا حللت الليل لست مضيفا
فانعم به يا سيدي متفضلا   و « الزاد » يا مولاي ناكله معا !

وبعدا ن فرغ الاضياف من تناول الفداء انشد حلمي باشا :

رفعنا للمظفر آي شكر   وقد جاء الفداء كما يراد
فقالوا : انه بالجود فرد   وقلنا : انه نعم الجواد !

فارتجل المظفر ابياتا جاءت من نفس الوزن والروي والقافية هي :

بنفسي سيدي الباشا المفدى   ومن بوداده يزهو الوداد
دعوتك للفداء على انفراد   فجئت وجاء اربعة شداد
ابادوا ما ببيتي من طعام   فساد الذعر وانهلع الجراد
وهل يرضي الذراري بيت شعر   يقول باني البطل الجواد ؟!

وبعد وقوع النكبة الفلسطينية وتوحيد ضفتي الاردن تحت التاج الهاشمي وجه الملك عبد الله رتبة « امير لواء » لاحمد حلمي باشا عبد الباقي واقامه حاكما عسكريا على القدس الشريف وحارسا للاماكن المقدسة .

وبعد ان ارتدى حلمي باشا البزة العسكرية وعلى كتفيه سيوف ونجوم وتيجان تلمع سره هذا المنظر فداعب حلمي باشا بقوله :

يا سيدي اني سمعت بما جرى   « سيفان » مسلولان فوق المنكب
فذكرتكم وذكرت حسن بلائكم   وهتفت من فرح : صلاتك يا نبي !
وسكنتم « دار اليتيم » (٣) وداركم   تشكو الهوان من الدخيل الاجنبي

من للنفوس بان تذوق هناءها   او تستلذ بمطعم او مشرب ؟
يا ويح امتنا وويح بلادنا   ضاعت وضاع رجاء كل فتى ابي
ولو اننا كنا الضحايا وحدنا   هانت مصيبتنا على المتقلب !

ومن المساجلات الشعرية التي دارت بين حلمي باشا والشيخ المظفر الابيات التالية وهي توضح واقع الحال انشد حلمي باشا :

قل للمظفر قد اطال صدوده   يا شيخ لا ادري لصدك كنها
الانني قد كنت ضيفك ساعة   اقسمت انك لن ترى لي وجها !

فرد المظفر بقوله :

يا سيدي لولا الذين صحبتهم   ما كان لي في الصد أي علاقه
قوم اذا سمعوا بضيف زارني   دخلوا علي بخفة ورشاقه
يستاصلون من الطعام لذيذه   ويحملون البطن (فوق الطاقه) !
ولو انهم بعد الطعام تعودوا   ان يتركوا بيتي بغير (خناقه) !
لحمدت مسراهم وحسن صنيعهم   وشكرتهم شكر المحب رفاقه !

٢ ـ نقولا الخوري

في « بيت جالا » جارة (المهد) ابصر النور وبعد ان انهى دراسته الابتدائية في مسقط راسه ارسله والده اللاهوتي المرحوم جريس يعقوب الخوري سنة ١٨٩٦ الى بطرسبرج ليدرس في جامعتها ، وبعد ان نال الشهادة النهائية بارحها الى فلسطين وامضى بين ذويه فترة قصيرة ثم عاد الى بطرسبرج ونال الدكتوراه في الاقتصاد السياسي والمالي من جامعتها .

وفي عام ١٩١٢ عينته السلطات في روسيا في منصب كبير بوزارة الاقتصاد ، وابدى كفاءات حمل الحكومة الروسية في اوائل الحرب العالمية الاولى على ان تسند اليه مراقبة مالية العاصمة .

وعلى اثر الانقلاب الروسي الخطير ١٩١٧ اختارته الحكومة عضوا في الوفد المنتدب لعقد معاهدة الصلح مع المانيا في برست ليتوفسك ، ولكنه اعتذر عن الاشتراك في هذا الوفد لاسباب قنع بها المسؤولون فانتخبوا سكرتيره الروسي بدلا منه .

---

(١) ـ من مارسين أصلا . (٢) ـ من بيروت أصلا . (٣) ـ يعني بها « دار الايتام الاسلامية » بالقدس التي لجأ اليها حلمي باشا خلال نشوب الاضطرابات الفلسطينية وابان وجوده حاكما عسكريا . (٤) هو (كتاب الكلام الحي) المطبوع في بيروت عام ١٩١١ .

وفي سنة ١٩١٨ اسندت اليه الحكومة الروسية مراقبة المالية العامة وهو في اصطلاح اليوم (رئيس ديوان المحاسبة) فاضطر بحكم منصبه هذا الى التنقل من ولاية الى اخرى على رأس رعيل لجب من الموظفين ، الى ان افضى به المطاف الى مدينة ايكاترينبرغ وفيها اصيب بنزلة صدرية حادة فتوفي صباح ١١ ايار ١٩٢٠ وعندما تناهى نعيه الى شقيقه الشاعر الاستاذ اسكندر الخوري البيتجالي رثاه بقصيدة رقيقة خفيفة الوزن والظل هذه بعض مقاطعها :

يفجر ذكر روسيا   دموعي فوق خديا
دما من بين جنبيا   فان عزيز عينيا
قضى في أرض روسيا

قضى في أرض غربته   بعيدا عن أميمته
ووالده واخوته   وموطنه وامته
قضى في أرض روسيا

فتى كالغصن قامته   وكالصمصام همته
فتى كالبدر طلعته   فتى خسرته أمته
قضى في أرض روسيا

اخي أبكيك ما لمعت   نجوم و ذكا طلعت
وما سحب السما هطلت   وورق في السما هدلت
وما نور بعينيا

اخي لا شيء يطربني   ويسعدني ويهنئني
بعادك يا اخي شجني   يكاد ينال من بدني
ومما بين جنبيا

(اكتر نبرغ ، ان لنا   عزيزا فاحفظيه لنا
بارضك لي أخ سكنا   لذا أصبحت لي وطنا
عدا وطني بسوريا

ضممت فتى أخا علم   أخا عزم أخا حزم
فكوني الام في الضم   لمن يقضي بلا ام
أخي بل نور عينيا

اليك احن ما دمت   من الاحياء وان مت
أنا بثراك اولعت   فلا انساك ما عشت
وحزني خالد فيا

غدا أمشي اليك لكي   أصلي فوق قبر أخي
أمد الى يديه يدي   واحثو من ثراه علي
واندب ضيف روسيا

عيون الله ترعاك   وبالرحمات تغشاك
غدا اسعى للقياك   كمجنون باحياك
احيي ضيف روسيا

٣ ــ المطران جرمانوس معقد

ولد في دمشق وتلقى دراسته الابتدائية في مدرسة الروم الكاثوليك بباب المصلى وبعد ان انهى دراسته الابتدائية عين كاتبا في حانوت تجاري فكان مثال الاستقامة والنشاط .

وفي احد الايام امره صاحب الحانوت ان يقيد بضاعة على (زبون) لم يأخذها فأبى المترجم له ان يفعل ما يعذب ضميره فانتقل الى حانوت صائغ دمشقي وظل يعمل فيه ثلاث سنوات ، وسرعان ما خطر له ان ينتسب الى الرهبانية فولى هاربا على قدميه الى دير المخلص (بجوار صيدا) وطلب الى رئيس الدير ان يقبله في عداد الطلاب لكن الرئيس حال دون امنيته ريثما يوافيه بشهادة ممهورة بتوقيع اخر شخص عمل لديه وازاء بكائه والحاحه استجاب لرغبة الفتى .

هام الصبي بالصلاة واذل نفسه وقهرها وعاش متقشفا لتهيامه بربه وكتب على جدار غرفته بيتا لابن الفارض هو:

اذا شئت ان تحيا سعيدا فمت به   شهيدا والا فالغرام له أهل !

واسرف الفتى الدمشقي بارتداء الثياب الرثة ، وزهد بحطام الحياة الدنيا ، وتميز بروح التقوى والصلاح ، وبعد ان انهى دروسه العربية بفنونها ثم الدروس الفلسفية واللاهوتية رسم شماسا انجيليا وارسل الى دمشق ليدرس بضعة شهور في المدرسة البطريركية ثم انتدب رئيسا ليعلم الفلسفة في دير المخلص وسيم كاهنا لطائفة الروم الكاثوليك بالقاهرة وانتخب كاتم اسرار البطريرك غريغوريوس يوسف وبعد فترة اختاره نائبا بطريركيا في بيت المقدس .

وفي المدينة المقدسة رقي الى رتبة ارشمندريت وسهر على شؤون طائفته وسلخ في مدينة السلام سبع سنوات وسافر الى فرنسا ليستندي اكف المحسنين ويجمع صدقات المؤمنين ليشيد المدارس ودور العبادة .

وفي ١٦ آذار ١٨٨٦ سيم مطرانا على ابرشية بعلبك فخدمها مدة ثماني سنوات بغيرة وحماس ، وبعد ان ادى رسالته الروحية على احسن وجه استقال من عمله وسمي اسقفا فخريا للاذقية سنة ١٨٩٤ واشتهر هذا الحبر العربي بمواقفه الخطابية وطلاقة لسانه .

وفي ١٣ شباط من عام ١٩١٢ فاضت روح هذا العابد الزاهد الى الخدر السماوي .

من آثاره العلمية : ترك المطران معقد كتابات منها الدينية ومنها الخطابية والادبية ودونك اسماء الكتب التي قام بتنقيحها :

(١) الميناون طبع عام ١٨٨٣ . (٢) مختصر الميناون طبع عام ١٨٩٧ . (٣) السواعي .

وهاك اسماء الكتب التي صنفها :

١ ــ الكلام الحي طبع عام ١٨٩١ .
٢ ــ رفيق العابد الجامع لكل الفرائض .
٣ ــ تفسير القداس الالهي وخدمة الفصح الجليل .
٤ ــ لورد وفتاتها طبع عام ١٨٩٦ .
٥ ــ سبيل الصلاح (جزآن يشتملان على الخطب التي القاها في كاتدرائية دمشق) .
٦ ــ حسن الختام (يشتمل على مواعظ لكل آحاد السنة) .
٧ ــ تحقيق الاماني لذوي الطقس اليوناني .
٨ ــ خدمة الفصح المجيد .
٩ ــ حسناء بيروت (رواية خيالية تدور حوادثها حول حادثة واقعية) .

عتبى

تـرى لـو جاءني يومـا — يـرد العتـب واللومـا
ويبعـد عـن مخيلتـي — ظنونـا جازت الوهمـا
ويغـدق مـن محبتـه — ضروبـا فاقـت الحلما
أتصبينـي مودتـه — أترضـي نفسي الظلمـا
أيـا سو جرحـي الدامي — بمـا قـد قـال أو هما
أأقبـل منـه أعـذارا — بـدت فـي الطرف اذ أومى
وقلبـي ليـس يعتبـه — تـرض شابـه الاثمـا
وقلبـي كـم يعذبني — بمـا اخفـى ومـا ضمـا
لمـاذا أخلـف الوعـد — وأورث خافقـي الهمـا
وسيرنـي على درب الغوايـة والهـوى الاعمـى

دمشق — سلافة العامري

غربة

الغربـة دائـي .. والبعـد — والوحشة تعصـف .. تشتـد
والوحـدة تنهشنـي أبـدا — أبـدا لا يـرأف بـي سهـد
الغربـة والامـل الـذاوي — وأمـان .. اغراهـا المجـد
فتهـاوت فـي صمـت خـاو — وتـوارت .. اذ ضـاع القصد
أسريت غريبـا .. يـا ويلـي — ضاعـت أيامـي .. والهـد
وحـدي لا يرحمنـي ليلـي — ويمـوت بأعماقـي السعـد
فلقـد عـاودت حكاياتـي — والذكرى .. مـذ كان الوجـد
ولقـد أطلقـت خيالاتـي — وبقيـت هنـا لا يشغلنـي
فتناهـت .. وازداد النكـد — شغـل .. او لاه .. أو نـد
وبقيـت هنـا لا يدركنـي — لا يـدرك مأساتـي فـرد

ناصح محمود

١٠ ـ رحلة الفيلسوف الروماني (تتضمن ترجمة حياة السيد المسيح على صورة لطيفة) .

١١ ـ السلوى (جزآن يشتملان على روايات لطيفة ونوادر مستملحة) .

١٢ ـ اذكر الرب .

١٣ ـ نشائد روحية .

١٤ ـ زخيرة الاصفرين (مجموعة من اقوال اعاظم ائمة الكتبة الاقدمين والمحدثين ضبطها بالشكل وطبعها في بيروت عام ١٩١١) .

١٥ ـ روفائيل خزامي .

نموذج من نثره :

« الحث على الآداب والترغيب في الفضائل وتقوى الله من اهم واجبات دعاة الدين ، والنهي عن المنكر وكشف مضار الرذائل من اجل فروضهم المقدسة . ينبغي لهم ان يطلقوا في كلا الامرين لسانهم : على المنابر وفي المحافل وفي السر والجهر ، ائتمارا بأمر الفادي العظيم القائل : « علموهم حفظ جميع ما اوصيتكم به » وخصوصا في هذا العصر الذي كثر فيه دعاة الخلاعة والغرور . وبما اني احد خدمة الدين اقبلت على تاليف هذا الكتاب (١) داعيا به الى الفضائل والتقوى ببيان محاسنها ، حاضا على مجانبة الرذائل ومجافاتها ، بكشف اضرارها ومساوئها . وكل ما فيه على اختلاف الموضوع وتباين المعاني يعود الى هذين الامرين . وقد اودعته مبتكرات القريحة الضعيفة ، ليكون له شيء من طلاوة الجديد وتأثير المبتكر ، وارسلت فيه القلم على سجيته ، ليكون خلوا من التعمل والتكلف ، واوجزت فيه ما شاء المقام ، دفعا لسأم التطويل وهو يتضمن خطبا للصوم الكبير وجميع اعياد السنة ، وقد دعوته « الكلام الحي » اي الصادق لما تضمنه من صدق التعاليم وصحة المبادىء ، فان كنت قد احسنت التاليف واصبت الغرض الذي توخيت فذلك غاية ما كنت اتمنى ، وان كان لحقني الوهن والتقصير فاني قد بذلت وسعي ! » .

عمان ـ الاردن — البدوي الملثم



عباس محمود العقاد

العقاد الشاعر

بقلم مصطفى درويش الدباغ

* * *

ان الحديث عن الاستاذ الكبير المغفور له ، عباس محمود العقاد كاتبا وشاعرا ومفكرا ، يأخذ صفحات عدة ، فالرجل حقا دوحة وارفة الاغصان كثيرة الظلال ، وانه مفكر عظيم من كبار مفكري الاسلام ، يؤمن بملكتي الاحساس والعقل ، وبملكة ثالثة يسميها ملكة الوعي الكوني ، يدرك بها الانسان العبقري البصير ذاته ، ويدرك الحقيقة الكونية الكبرى ، وانه ناقد كبير من كبار نقاد الادب في العصر الحاضر اتيح له من الوعي والذوق ، والذكاء الثاقب ، ما كشف به عن الحقيقة والجمال المطلق الكامن في جميع اصناف الفنون ، وكاتب تراجم عظيم من كتاب الترجمة لا يقل ابداعا عن « اندره موروا » الفرنسي ، « واميل لودفيك » الالماني ، يكشف لك عن حياة العظماء ، ويظهر لك مناحي العظمة والقوة فيهم .

بيد انني الان ، اتناول العقاد شاعرا ، ارجف الحاقدون عليه وانتزعوه من وادي عبقر ، ومن قمة الالمب ، ووسموه بانه صياد حكم ، وشاعر فكر ، وليس شاعر نفس ، وانه تأثر في معظم شعره بالشاعر الانجليزي « توماس هاردي » وغيره .

ولو استعرضنا دواوين العقاد ، وتابعنا تطوره الشعري ، لرأينا على خلاف ما يزعمون ، وما به يخرفون . العقاد شاعر كبير من شعراء النفس ، وشعره هو شعر الحياة ، والناظر فيه خلوا من كل ضغينة وحسد ، تتمثل له الحياة ، بامتداد ابعادها ، وسحيق متاهاتها ، ونجتلي منه صوفية انسانية تشد اواصره بالكون ، وتربطه فيه ، فهو يحلق في اجواء طليقة رحيبة من اجواء الحياة ، ولا يكتفي بالتحليق في جزء ضيق فيها . فالحياة عنده حافلة بالشعر ، وفي محاريب الطبيعة جمال لا يبصره الا المندمجون في الكون يرقون اليه على براق من بصيرتهم الحادة ، واحساسهم النفاذ .

والعقاد لا يكتفي بوصف مظاهر الكون الطبيعية المادية ، وانما يتسرب الى اعماق وما وراء هذه المظاهر . فيرينا انماطا من الجمال خفيت عن بصائرنا ، يكشفها برهافة حس وبصوفية عميقة ، ويقول من قصيدة يصف فيها ليلة مقمرة من ليالي المصيف على الشاطىء السكندري :

شف لطفا عما وراء السماء ... نور بدر ، مفضض اللألاء
رق سجف السماء حتى كأن العين ، تتلو هناك سر الفضاء
وترى البحر ولو توسده ، النائم ، لم ينتبه من الاغفاء
وكأن الخرير صوت يناجي الغيب حتى لهم بالاصغاء
في سكون كأنه نفس الحالم او خفق طائر في الهواء

وما ابدعه حين يصور الاجسام الخجلة يجمشها ماء البحر فتخجل ، ونحن نعرف ان الخجل ينطبع على الخدود ، ولكن العقاد بما اوتي من رهافة حس ، وسلامة ذوق استشف الخجل حتى في الاجسام الجميلة يقول :

ارى في البحر اجساما تشبع ... عليها من حياء الحسن درع
اذا ما الماء جمشها تراءى ... لها خجل على الاعطاف بدع

وما ابدعه حين يصور خبر مقدم الربيع ، ويناجي الورق المخضر في اعطاف الشجر يقول من قصيدة :

يا ايها الورق المخضر في شجير ... عهدي ، وما فيه من ذي خضرة اثر
من اين اقبلت؟ بل من اين اقبل في ... عيدانك العوج ، ذاك العطر والزهر
انا سألنا .. ولو عاد السؤال الى ... فحوى الضمائر ، لم نعرفه يا شجر
سلنا بحقك من اين استجد لنا ... هذا السرور الذي في القلب ينتشر
كلاهما طارق طاف الربيع به ... على براق من الانوار ينحدر
سله فان لم يجب فانعم بمقدمه ... وافرح به ، وانتظره حين ينتظر
اذا اجاب بازهار مفتحة ... وبالسرور ، فحسبي ذلك الخبر

والعقاد كما قلنا عميق الاحساس بالحياة وجمالها ، فاذا ما تسلل الى باطنها ووقعت نفسه على سر ما فيها من جمال الاق ، فانه في حالات اخرى ، يصف انفعالاته وما انطبع في مشاعره ، ومسارب حسه من اصداء بعثتها مظاهر الكون في نفسه :

لقد اصطاف في رأس البر ، وهو مصيف حالم حافل بالوان الجمال الصامت المتوهج فاذهلته المشاهد واثارت في نفسه انفعالات شتى يقول من قصيدة :

مناظر من سحر الجمال اراها ... ولولا سناها ، قلت كنت اراها
تلوح كذكرى حالم يستعيدها ... لعمق معانيها ، وبعد مداها
فمن عالم النسيان فيها مشابه ... وفيها من السلوى جميل رضاها
ليالي برأس البر ، تندى وداعة ... ورقة اشجان وطاب نداها
وداعة ذات الدل شاب فؤادها ... شوائب من هجر فراض صباها
ليال برأس البر ، طاب نداها ... وشفت دياجيها ، ورق سناها

حبي

هل يشعر الناس بالحب الذي أجد ... وهل تحس بـه الافلاك والابد
أم انه ذاهب هدرا كما ذهبت ... مع الرياح أمان ما لها عدد
يشوقني كل ما القى ويفرحني ... كأنني بين انواع الدمى ولد
وما نظرت الى اشياء اعرفها ... الا توهم قلبي أنها جدد
ويلتقي في هوى نفسي وفرحتها ... كل البرية من ضلوا ومن رشدوا
لا يعرف الحقد قلبي او يخالطه ... ولا يمر ببالي الكيد والحسد
كأنني نبعة في الارض صافية ... تحت الخمائل لم يشعر بها احد
تمضي السنون عليها وهي جارية ... والناس عن مائها السلسال قد رقدوا
حب تفيض به نفسي ويسعدني ... اذا الانام بما يرضيهم سعدوا
وربما خلت اني أستطيع به ... سيرا على البحر والامواج تطرد
وان اطير به في الجو متنقلا ... كما أشاء ويمضي طوعي الجسد
وان ارد به الموتى واخلدهم ... واجعل العيش لا هم ولا نكد
وان افتح أكبادا مغلقة ... فيلتقي الظبى والضرغامة الحرد
وكيف يعجزني شيء أهم به ... وشعلة الحب في جنبي تتقد
وربما خلت ان الصخر يفهمني ... وانه واجد بي مثل ما اجد
وربما خلته في صمته زمنا ... قلبا تحجر لما عضه الكمد
صبابة وتباريح مجنحة ... مثل الحمائم فوق الكون تحتشد
تحنو عليه وتهواه وترحمه ... ويستوى في مداها القرب والبعد

حلب ... عمر ابو قوس

هنا النيل ساج.ظال في الدهر سيره ... وطالت مرامي نبعه فسلاها
هنا البحر ثوار الدهور،على الكرى ... ويطغى ، فلا يحمي النفوس كراها
اذا استرسلت اصداؤه في اطراها ... ترسلت الاحلام ملء مناها
هنا عالم السلوى هنا العالم الذي ... تحس الليالي فيه ، وقع خطاها

والقصيدة كلها على هذا النسق الفريد ، تتسلسل بنية حية ، نكتفي بهذه الابيات منها ، تزخر بالانفعالات النفسية المرحة الهادئة ، وقد طغى تصوير الاثر النفسي على المشهد الحسي ...

والعقاد رقيق حين يتغزل ، وحين يصف من يحب وهو يلبس ثوبا ازرق ، تلتمع فيه الفتنة والجمال كاقصى ما تكون الفتنة ، واروع ما يكون الجمال ـ ويمازج ما بين لون السماء وزرقة ذلك الثوب باسلوب حي وثاب يقول :

الازرق الساحر بالصفاء ... تجربة في البحر والسماء
جربها مفصل الاشياء ... لتلبسيه بعد في الازياء
مجود الاتقان والرواء ... ما ازدان بالانجم الوضاء
ولا بمحض الزبد الوضاء
زينته بالطلعة الفراء ... ونضرة الخدين والسيماء
وطلعة العينين في استحياء
ان فاتني تقبيله في الماء ... وفي جمال القبة الزرقاء
فلي من الازرق ذي البهاء ... يخطر فيه زينة الاحياء
مقبل مبتسم الاضواء
مردد الانغام والاصداء
وقبلة منه على رضاء ... غني عن الاجواء والارجاء
وعن شآبيب من الدأماء ... وعنك يا دنيا بلا استثناء

وللعقاد سوانح فكرية وقصائد وطنية واجتماعية ملأت دواوينه ، وترد على خاطره السوانح الفكرية وتنصهر في بوتقة فنه ، فيزفرها شعرا سائغا ، رصينا ، يدهشك منه براعة اللفتة الفنية المتغلغلة في صميم الحياة الانسانية يقول :

ليس بين الجنون والعقل الا ... خطوتا سائر فحاذر وامسك
اول الخطوتين نسيانك الناس ... واما الاخرى فنسيان نفسك

هذا هو العقاد شاعر الحياة ، وشاعر النفس ، وشاعر الجمال ، فلقد كان استاذ الجيل بما قدمه من زاد دسم على خوان معرفته ، اصاب منه المثقفون غذاء لعقولهم ، وروحا وريحانا لنفوسهم ، رحمه الله ، فلقد كان حجة الشرق على الغرب .

عمان ... مصطفى درويش الدباغ

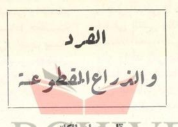
عندما تصبح السحب قطعا بيضاء متعانقة تزخرف السماء ، يبدأ سكان المدينة بالزحف الى الحدائق والمنتزهات العامة ليستقبلوا فصلهم الحالم ، الربيع . وأجزم انهم لم يروا ، او هم لم يلحظوا ذلك الحارس ذا الذراع المقطوعة ، الذي كان يقف قريبا من قفص القرد في متنزه « السبيل » الرائع . فقفزات القرد وحركاته تصرفهم عن التفكير بأي شيء غير الضحك والتمتع بمنظر هذا المخلوق العجيب الذي يبدو لهم انسانا مشوها ، غزير الشعر ، مستطيل الرأس ، قصير القامة ، مديد اليدين ...

كان الفضول ، طبعا ، يدفع بالمتفرجين الى السؤال عن أحوال القرد ، من أين جاء، وكيف اصطادوه او اشتروه ؟ ويتكهن أحدهم بانه من أصل هندي ، ويزعم اخر بأن معلوماته الموثوقة تنسب القرد الى السودان حيث احضروه مع أنثى ماتت في الطريق .

وكثيرا ما يتعجب الناس من ذكاء القرد ، وهذا ما دفع بأحدهم مرة لان يبدي تصورا مخيفا ، مفاده ان القرد اذا قص شعره والبس ثيابا مدنية ، ودرب على العادات المألوفة ، لاصبح انسانا لا يختلف عن سواه، فالافضل ان يستر القرد عورته ولا يظهرها امام النساء والاطفال ... ورد عليه شاب تبدو عليه مظاهر التعلم بأن علماء اليوم يجهدون انفسهم في سبيل ايجاد الطرق المأمونة لتحديد النسل ، نظرا لتضخم السكان وازديادهم في العالم ، ولما ينتظرهم من مجاعات ومهالك اذا استمروا على هذه الافاضة من الانجاب ، وليس من المعقول ان نرفع القرد الى مرتبة الانسان لمجرد ستر عورته !

ولكن احدا من هؤلاء المعلقين لم يحاول ان يتساءل عن سعادة القرد في قفصه الحديدي، ومخبئه الخشبي الصغير الذي يشبه منامة الكلاب ، وشجرته اليابسة المثبتة ما بين أرض القفص وسقفه المكسور . واذا كان الحارس ذو الذراع المقطوعة يعرف تفاصيل حياة القرد فهو يرفض بشدة الاجابة عن أي سؤال يدور حولها . ويبدو انه وجد اخيرا في مصاحبته او ملازمته لهذا القرد مكسبا يضاف الى صمته وسكوته . واقل ما يقال ان الحارس ادرك ان هذا المخلوق الذي يتحرك فيضحك الناس ويسليهم لا تعني حركته غير التعبير عنسخطه وضيقه بقفصه.

ولا نزعم أن صداقة قامت بين السجان والسجين ، وانما هو صمت عميق سطا على القلبين . وكلمة سجان مثيرة للابتسام والحزن في ذات الوقت . فالمفتاح والقفل ليسا كل أدوات السجن ، ذلك ان الحارس يعتبر نفسه سجينا هو الاخر مع القرد ، بل هو يعتبره احيانا سجانه الحقيقي ، فيحسده على وجباته الشهية التي يعجز هو عن تناولها . فالقرد هذا الحيوان الاخرس يخدمه اكثر من انسان ، ويشرف على صحته طبيب بيطري يزوره كل خميس ، ويسأل عن احواله اكثر من موظف ومدير .. اما هو فلكونه لا يستطيع ان يقفز او يتعلق بخفة وليس له ذنب ، وجسمه غير مكسو بالشعر، ولكونه يحلق ذقنه في الاسبوع مرتين فان احدا ما لا يسأل عن صحته ومأكله . ثيابه وأحواله . لذا فهو يعتقد بانه خادم لحيوان لا يستحق كل هذا الاهتمام ، في حين يموت الناس جوعا . فالقرد لا يتمتع بأي ميزة جمالية ، سواء في شكله او في صوته او في عقله ، تدعو الدولة الى صرف الاموال في سبيل لا شيء ، ومن الحمق حقا ربط مصير انسان بحياة قرد .



بقلم جهاد الكاتب

اما علاقة الحارس بالناس الوافدين والمتنزهين فهي لا تتعدى الكلمات المقتضبة والصفرات اليائسة او الصيحات التي يطلقها محذرا الاطفال الاقتراب من القفص ، او رمي الاوساخ ، او بعض المآكل الضارة بصحة القرد . ورغم ضيق الفتحة في هذه العلاقة فو لا يعدم ان يسمع كلمات احتقار وسخرية من شباب وقحين يكررون دوما جملة تكاد تكون واحدة « لسنا قرودا عندك حتى تصرخ في وجوهنا » .

ان الحارس يرفض ان يكون صديقا لقرد او ان ترتبط حياته بحيوان لا يعي من الدنيا غير قفصه ، فهو لم يسمع شيئا عن الحرب والقنبلة المدمرة والسباق نحو الفضاء . صحيح انه لا يؤذي ولا يصنع الشر لكونه هادئا في طبعه ، ثائرا اذا اثير ، ولكنه مع هذا ليس انسانا . قد يتمتع بميزات لا نجدها عند كثير من الناس ، ولكنه ايضا يدافع عن نفسه بوسائله الخاصة ، فاذا حدث أن ادار مقعده للمتفرجين وبال باتجاههم ، فان هذا يمثل ذروة احتجاجه ، ولا يملك بعد هذا سوى ان يلف ذنبه على الغصن ويوقف حركاته تماما . هذا هو الحد الاقصى لشره ، ولا يقوم به الا بعد ان يشفق على نفسه من تحمل المهانات والمداعبات السخيفة المثيرة التي يحدثها الصغار والكبار على حد سواء .



لقد أصبح القرد كابوسا .. شبحا رهيبا في حياة الحارس ذي الذراع المقطوعة . فقد ربط الناس بينه وبين قرده برباط ساخر غريب ، فاينما وجد ، في الطريق ، او في البيت ، او في الجامع أحيانا .. يسألونه السؤال الدارج المعتاد « كيف حال القرد .. كيف حال القرد .. » . ولم يعد أحد منهم يسأله عن صحته او عن قصة ذراعه التي شغلت الناس فترة غير قصيرة ، والتي قطعت في حادثة رهيبة تفوق قصتها حد التصور . ولم يعد أحدهم يسأله عن بيته الذي تداعى جداره ، وعن الشجار الذي نشب بينه وبين صاحب البيت حول اصلاحه . ولم يعد احد يحدثه عن الزواج « متى ستتزوج ؟.. الا تفكر بالزواج ؟.. الزواج نصف الدين .. » . أبدا ، لم تعد أذناه تقعان على مثل هذا الكلام . وكل ما هنالك بسمات وضحكات ، وتغامز ينتشر من حوله « هذا حارس القرد . جاء حارس القرد . راح حارس القرد . كيف حال القرد . ماذا يأكل . من اين جاء ؟ لماذا لا تخاف منه ؟.. هل اصبح صديقك » . حتى لقد دفع هذا بالحارس الى ان يشك في آدميته احيانا . وكثيرا ما وقف امام المرآة يتفحص وجهه ويديه ورقبته وينظر الى مقعده .. ولكنه كان يتراجع عن فكرته حالما يثبت له ان وجهه لا يزال يحمل نفس القسمات منذ ثلاثين سنة سوى زيادة بعض التغضنات والتجاعيد السائبة .

كان الحارس يتمنى من كل قلبه في بعض اوقاته لو خلقه الله قردا ، وليطلق عليه الناس بعد ذلك ما يشاؤون من الاسماء . ولا بأس ان لا يكون له اسم اطلاقا . فالمهم اولا ان لا يجوع او يشعر بشهوة الى مأكل لا يستطيع اعداده . ولا نستغرب ان آمن الحارس بان القرد يعيش حياة مترفة يعجز كثير من الناس طوال سني حياتهم عن مجاراتها .

والان وقد مضت سنتان على علاقة الحارس بالقرد ، تلك العلاقة الصامتة ، فان أعصاب الحارس لم تعد تحتمل مزيدا من السخرية والعبث ، خاصة بعد ان بدأ يحلم بقرده ليلا .. يعاركه ويصارعه .. يرى قرده يحطم

رحلة العمر

يـا الهي ، قـد مللت الكتبا
وسئمت الشعر واللحـن الحبيب

وازدريـت الامـل المرتقبـا
فانـا فـي الارض منفـي غريـب

كم سهرت الليـل أرعى الشهبا
وأناجي الفجر ـ ذا النائي القريب

واذا الشمـس رمتنـي لهبـا
رضت نفسي بالاغاني والنسيب !

ذقت طعـم الحلو طـورا والمرير
ولبست الشوك ثوبـا والحرير

فتساوى النور عندي بالظلام

حفلت رحلـة عمـري بالامـور
وجلت عينـي تصاريف الدهـور

فمتى ابلغ ميناء السلام ؟

امنية العدم

يـا الهـي ، كـان قلبـي فائضا
بمعين الحب كالبحـر الخضم

وأراه اليـوم امسـى غائضـا
فانطوى صدري على الصخر الاصم

كنت فـي الحب اراني واحـدا
مع خلق اللـه والكون العظيـم

فغدا قلبـي جموحـا حاقـدا
لا يرى مـا حولـه الا الدميـم

كفـرت نفسي بنفسي والوجـود
وتمادت فـي التردي والجحود

فتمنت في تلافيف الدماغ

عاصفا يمحو البرايـا والنجوم
ويهد الكون فـي أقصى التخـوم

فاذا الكل سديم وفراغ !

بغداد
مير بصري

القفص .. ومديره ينهره ويصيح في وجهه :

ـ مجنون ! القرد تعلم عليك ، ولن انقلك من مكانك ولو مت !

وتستمر احلامه متعبة مؤلمة . يشعر احيانا بعد ان يدلف الى فراشه ان قرودا سوداء تتراقص حوله ، تحمل فـي يديها فؤوسا وتشير الى راسه .. وينشق الحائط عـن جمع من الناس يتصايحون « هـذا صاحب القرد . أبا القرد كيف حال القرد ؟ قم ان القرد هرب . » ويسمع صوت مديره « آخ ! لو هرب القرد أقطع رقبتك . »

حاول الحارس مرارا ان يوقف او يبدد هذه الاحلام ، الا انـه كان يفشل دوما ، ويشعر بخيبة وانكسار ، ويميـل الـى الاستسلام بعد ان اصبح كل شيء في حياته مرتبطا بالقرد ، حتى أمه اتهمته يوما بانـه ياكل مثل القرود . واخر اتهمه بان يـده طويلة مثل القرود ، وثالث يقول له « شعرك كثيف مثل القرد » .

بعد ان غابت شمس يوم ربيعي ، وفـرغ المتنزه من رواده ، وانصرف الحراس جميعا عدا الحارس الليلي الهرم ، كان على حارس القرد ان يحمل قرده الى غرفة خاصة ليضعه فيها بعيدا عن النسمات الليليـة البارده . ولكنه بدل ذلك وقف امـام باب القفص ، كئيب الوجه ، وفي عينيه احمرار . ويبدو ان القرد لاحظ تباطأ الحارس في فتح الباب فاخذ يهزه بيديه ويصدر أصواتا متقطعة .

كان الحارس يريد ان يسدل ستارا أبديا ينهي به هذه المهزلة التي لا زالت تضحـك الناس رغم تفاهتهـا ومشاهدها المعادة . وكانت ثمة فكرة قـد اختمرت فـي رأس الحارس منذ أيام . انه يشعر بكونه غريبـا بسبب وجود القرد ، واعتقد ان بوسعـه استرداد آدميته اذا غلب القرد . ولكن الى ايـن ؟

الان وقد تسلل الظلام الى المتنزه ، وبدت بعض النجمات تكشف عن استحيائها ، وجد الحارس في نفسه شجاعة متزايدة لتنفيـذ فكرته .

أباح لعينيه نظرات سريعة الـى المقاعد الكئيبة الوحيدة ، والاشجار الصنوبريـة ، وسور المتنزه المرتفع ، ونافورة البركـة الصامتة .. ثم اندفع فجأة نحو باب القفص وفتحه ، وبسرعة مدهشة ادار ظهره هاربا ، وكان قد صمم على ان يتحمل كل شيء .

وسرعان ما ارتفع القرد فوق السور ، مخلفا وراءه كومة من الاشجار والمقاعد . وفي هذه الليلة شعر الحارس بنشوة رائعة ، ونام ملء جفنيه ..

حلب
جهاد الكاتب

القصيدة الشقراطيسية

بقلم الدكتور فؤاد جبور حداد
من « العروة الوثقى » في لندن

* * *

توجد في الادب العربي قصائد شغلت الناس وملأت دنياهم فترة من الزمن مثل قصيدة عمرو بن كلثوم في الجاهلية اذ شغلت قبيلة تغلب مدة من الزمن وهناك قصائد المتنبي في المشرق والموشحات في الاندلس . وكم الح علي السؤال التالي : ما هي القصيدة او الشعر الذي ملأ حياة المغرب العربي وشغل الناس فيه . وترجع اهمية هذا السؤال الى ان العقيدة التي تحتل مكانة مرموقة في المجتمع لا بد ان تعكس الكثير من شخصية ذلك المجتمع وخصائصه .

لقد لفتت نظري في الادب المغربي اشارة تظهر بتكرار ملحوظ الى قصيدة تعرف باسم القصيدة الشقراطيسية فهذا شاعر يشرح القصيدة وذاك يخمسها وثالث يشطرها ورابع يعشرها وهذا السلطان ابن زكريا في تونس يناظر الشعراء في القصيدة المذكورة ويقال انه كان يحفظها كلها عن ظهر قلب .

وبطبيعة الحال شعرت بفضو ل قوي يدفعني لقراءة هذه القصيدة وطال سؤالي عنها وبحثي عليها الى ان وجدتها اخيرا في المتحف البريطاني مع شرح لها لعبد الله محمد المحجوب . واسمها الكامل « القصيدة الشقراطيسية في مدح خير البرية » لابن يحيى الشقراطيسي . ومطلعها :

الحمد لله ، منا باعث الرسل — هدى بأحمد منا أحمد السبل
خير البرية من بدو ومن حضر — وأكرم الخلق من حاف ومنتعل

وعندما قراتها احسست ان هذه القصيدة « التونسية » هي التي شغلت الناس وملأت حياتهم في شمال افريقيا مدة من الزمن .

والقصيدة الشقراطيسية قصيدة طويلة عدد ابياتها ١٣٥ بيتا وهي تروي حياة الرسول وتصف عظمة نفسه واعماله . وقد قام اربعة شعراء بتخميسها اولهم ابن الشباط وقد صرف ابن الشباط قسما كبيرا من حياته في شرح القصيدة وتخميسها ويعتبر تخميسه هذا اكبر عمل ادبي قام به .. ومطلعه :

ابدأ بحمد الذي اعطى ولا تسل — وذد به رين ريب الاين والكسل
فالحمد أحلى جنى من طيب العسل — (الحمد لله ، منا باعث الرسل
هدى باحمد منا احمد السبل)

خلاصة النضر من نضر ومن مضر — واول الخلق تشفيعا بلا نظر
من لا نظير له في راي ذي نظر — (خير البرية من بدو ومن حضر
وأكرم الخلق من حاف ومنتعل)

والتخميس الثاني لاحمد بن عتيق القبيسي العاموري .. ومطلعه :

أربع من العلم الأسنى على طلل — فكم ضحيت ولم تفزع الى ظلل
وان عشوت الى نار الهدى فقل — (الحمد لله ، منا باعث الرسل
هدى باحمد منا احمد السبل)

من سر عدنان بدر غير ذي سرر — جالي المناسب عالي الكعب من مضر
من دوحة فرعها في النضر من مضر — (خير البرية من بدو ومن حضر
وأكرم الخلق من حاف ومنتعل)

والتخميس الثالث لابي بكر بن حبيش اورده العبدري في رحلته ومطلعه :

غزل الشباب مضى ان الشبا ولى — فما التغزل من قولي ولا عملي
حمد الاله ومدح المصطفى أملي — (الحمد لله ، من باعث الرسل
هدى باحمد منا احمد السبل)

والتخميس الرابع للشيخ محمد االنيفر ومطلعه :

باسم الاله وحسبي معدن كل ولي — ثم الصلاة على المختار في الأزل
والالى والعجب ما نيل المنى — وتلي (الحمد لله منا باعث الرسل
هدى باحمد منا احمد السبل)

وقام بتشطير القصيدة الشيخ ابراهيم بن سالم ومطلع التشطير :

(الحمد لله منا باعث الرسل) — وفضل المصطفى في القول والعمل
وقد هدانا الى سبل الهداية اذ — (هدى باحمد منا احمد السبل)

وقام بتوشيحها الشاعر ابن زنون شاعر توزر وقد اسماه « التسبيح الاشرف والتوشيح المستطرف » . ومطلعه :

سبحان من خلق الاكوان بالأزل — سبحان من خلق الانسان من عجل
سبحان ذي العرش ان نامنه في وجل — لا رب الاه دينا لاسمه الجلل
والله اكبر ان ما جئته تقل — (الحمد لله منا باعث الرسل
هدى باحمد منا احمد السبل) — فابلغ المتدني غاية الامل

وقد عشرها ابو الفضل يوسف بن النحوي فقال :

اذا سرى ناسم الاسحار والاصل — بروضة روضتها الشمس في المحل
واختال عطف البرى في الحل والحلل — واضحك الزهر دمع الواكف الهطل
وقلد الطل جيد السوسن الخضل — ولاحظ النرجس الوسنان عن مقل
قد وردت وجنات الورد عن خجل — فحي بالطيب عني طيبة وقل
(الحمد لله منا باعث الرسل — هدى باحمد منا احمد السبل)

ولهذه القصيدة شروح كثيرة . فقد جاء في نفح الطيب ان ابا الحسن بن عبد الرحمن الاشبيلي جاء الى افريقيا وكتب شرحا قيما للشقراطيسية .

وجاء في « البستان » ان احمد بن مرزوق التلمساني وضع شرحا اسماه « المفاتيح القرطاسية في شرح القصيدة الشقراطيسية » .

وكتب ابن الشباط المتوفي سنة ٦٨١ هـ ثلاثة شروح لها واحد كبير واخر متوسط وثالث صغير . اما الكبير فاسماه « صلة السمط وسمعة الربط » . ويقال ان ابن الشباط انفق حوالي عشرين سنة وهو يشتغل في هذه القصيدة وقال فيها « يئست من معارضتها الاطماع وانعقد على تفضيلها الاجماع فطبقت ارجاء الارض واشرقت منها في الطول والعرض » .

مؤلف القصيدة هو عبد الله بن ابي زكريا يحيى المنتسب الى شقراطس وهو اسم حصن يقع بالقرب من قفصه في جنوب تونس وقد عاش في النصف الاول من

لك ابعثها

هاك الرؤى طفحت بالاه والالـــم   ينساب كالرعب في أعراق منهزم
ويستطيل على الدنيا..وما وجيت   به الليالي من نصب ، ومــن سقم
وما تعاورت الاصباح مــــن محن   مجنونة العدو..ترمي الساع بالنقم
يستصرخ الارض ان تلقي بما ثقلت   به الموازين من عاد ، ومـــن ارم
وما يشد عن الاقدام ... منفتحا   على ربيع من الافكار .... والنظم
ويصفع الدفق : ان ضمت مفاتنه   ما يفسد النغم الريان بالجـــذم

هاك الرؤى انفجرت بالفيظ ملتهبا   تنهد كالسيل مجتاحا .. وكالحمم
تود ـ لو ملكت ـ تجتث منطويـــا   مافي الجماجم من ضعف ، ومن هرم
تأتي على الدوح مهزوز الرؤى خورا   وتطبق الجو مسجورا على القــزم
وتستبيح ذمار « الطهر » منشتما   هانـت أخادعــه للشاء والنعم
كفرت بالنــــور مشدودا قوادمه   والفجر يشحذ ايذانا من الظلـــم

والنجم يلثم اقدام الثرى .. ضعة   وتعبث الدود فـــي اهدابه الرثم
مالذة العيش ، ان لم يضطرم نغما   يضري النفوس بما يشتار من ضرم!
يزهى به الكون: ان قد فاء مطرحه   فكـــر تزين بالاقـــدام والشمـــم
صاغت له الشمس من أعطافها لفة   لا تعرف الخوف في حرب ولا سلم
ولا تقـــر ضرورات .... تعكزها   فيما تحاول من غاي ، ومن غنـــم
تكاد تصرخ بالنجوى ، وقد خفيت   وتنطق الهم لم يجر علـــى كلـــم
ذا ما نشف اليـــه شوق محترق   وما نشد اليـــه فعل .... منبرم
وما يرنح من اعطافنا ... طربـــا   ويسكر الهـام بالاحلام والنغـــم
وما يؤجج فينـــا الرفض محتقنا   ويلهب الحقد في الاحشاء والهمم
ويزرع الافـــق بالانـــواء منذرة   ليل الخنا والغبا بالويل والعـــدم
اذ ليس للارض ان تبقي على نشز   من الوجود ، وموبوءا مـــن الظلـــم
وانمـــا هدف الدنيـــا وغايتها   ان تفرش الارض بالاضواء والنعم
فلا أبالي ، وان ضاق الفضاء بنـــا   وأطبق الجو ... حتى لات منخرم
وصوح الدرب..حتى لان مصطحب   وشطت الطرق بالاهواء والذمـــم
فالفجر ـ ياليل ـ آت لا محال غدا   وسوف ننعم في دنيا من النغـــم

انجلترا   محمد المبارك

القرن الخامس الهجري ونظم قصيدته هـذه عندما اراد تأدية فريضة الحاج فألقاها في حجرة قبر الرسول .

وتعتبر هذه القصيدة واحدة في سلسلة قصائـد قيلت في مدح الرسول كانت اولها قصيدة كعب بن زهير التي سميت بالبردة لان الرسول عندما سمعها خلـــع بردته على كعب . وبعد ذلك اصبحت القصائد التـــي تقال في مدح الرسول تسمى نهج البردة او البردة فقط على سبيل الاختصار . وجاء الشقراطيسي فكتب «بردته» هذه على وزن قصيدة كعب ثم جاء « البوصيري » بعده بحوالي قرنين من الزمان فنهج على منوال «الشقراطيسية» بحرا ومعنى ولم يخالف في شيء عدا تغيير بسيط فـــي اللفظ والقافية ومطلع قصيدته :

أمـن تذكـر جيران بـذي سلـم   مزجت دمعا جرى مـن مقلـة بدم

واخيرا عارضها شوقي في قصيدة (نهج البرده) ومطلعهـــا :

ريم على القاع بـين البان والعلـم   أحل سفك دمـي في الاشهر الحرم

هذه معلومات متفرقة عن قصيدة كان لها دوي في الادب العربي في شمال افريقيا ، ارجو ان اكون قـــد ارجعت في هذا المقال شيئا من صداه .

لندن   **فؤاد جبور حداد**



اميــل توفيــق

صور وانطباعات من رحلاتي في السودان

بقلم اميل توفيق

* * *

٤ ـ العلاقات والتقاليد الاجتماعية ـ والنشاط الثقافي

مهما تباينت الصفات الخلقية العديدة ، او اختلفت السمات الاجتماعية عند شعب من الشعوب ، فهناك صفات غالبة وسمات متواترة هي التي تكون «الشخصية النموذجية» التي ينطبع بها من يعايش هذا الشعب ، ومن هنا فانني ارى ان من أهم الدعامات الخلقية للشخصية السودانية هي المشاركة الوجدانية او الانسانية . فالسوداني يحييك بحرارة ويلقاك بالترحاب ، وبين الاصدقاء تجد السلام او اللقاء او الوداع متميزا بالشوق والعاطفة المتأججة. ومع اختلاف درجة المشاركة ـ كما هو طبيعي بين الناس ـ فانك تلمس اصالة تلك العاطفة بحيث لا ترى بين السودانيين من يواري عاطفته الا في النادر القليل حتى الساخر المتهكم يظهر سخريته وتهكمه في كثير من الصدق والجراة ، والضاحك يضحك ملء فمه ومن اعماقه ، والطروب يملأ الدنيا طربا ومرحا. وهم يعبرون بصدق ويشاركون بصدق في افراحهم وفي احزانهم .ولكن هذه المشاركة مرسومة بحدود الجد ، واحترام الصغير للكبير ، وتقديس للقيم العائلية والقبلية والدينية ، والفردية في التعبير انما تبرز داخل الاطار الجماعي الذي يهيمن على السلوك . والمشاركة اساس لصفة غالبة هي الديموقراطية الطبيعية التي تشيع في المجتمع السوداني. فان طبيعة السوداني الديموقراطية اقوى من فوارق المجتمع او الفوارق الاقتصادية . ففي الونسة مثلا او في المناسبات واللقاءات الاجتماعية العديدة يختلط الناس كبيرهم وصغيرهم في الاحاديث او في المناقشة والحوار بدون تحرج من مركز او جاه .ولا يرفض الكبير منهم مقابلة من هم دونه ، ولا يتحرج الصغير فيهم من لقاء من هم اعلى منه رتبة او مكانة .

واذا تميز المجتمع السوداني بعنصر التماسك الجماعي ، من خلال صفة المشاركة ، فان للتماسك درجات مختلفة من حديث الاصالة والولاء. فيمكنك ان تعتبر ان الولاء الغالب والاهم هو الولاء للقبيلة او للموطن .ومن هنا يظهر التضاد او التناحر بين القبائل المختلفة حيثما تتصادم المصالح **(كما يحدث بين القبائل الرعوية). وقد** احس الراي العام السوداني الذي ينتظم الخريجين والموظفين او المثقفين عامة ، فضلا عن المسئولين ، بمثل هذه النقطة الخطيرة الهامة فعمل على رفع درجة التماسك الى مستوى الوطن او القومية. وقد تناولت السلطات شهادة الميلاد ـ مثلا ـ بالتغيير او التعديل اذ بعد ان كانت تميز بين الحلفاوي والدنقلاوي والبجاوي الخ .. جاء التشريع الجديد في الشهادة ليعبر بكلمتي «سوداني الجنسية» عن معنى التوحيد تحت العلم الواحد ، **وعن معنى التذويب للفوارق بين القبائل المختلفة .**

* * *

من تقاليد المجتمع المدرسي انه يبرز نشاطه الثقافي والرياضي ـ على مستوى المدينة ـ مرة في كل عام ، في حفل يسمى «يوم الآباء» . وفي ذلك اليوم تقدم المدرسة ـ عدا العروض الرياضية والعسكرية والمسابقات في الساحات الكبرى بالمدينة ـ معرضها العلمي داخل المعامل، وتمثيليات هامة على مسرحها المدرسي. ولقد كنت أهتم بدراسة التمثيليات التي تقدم على ابراز الواقع السوداني وتناوله بالنقد والاصلاح .

وضمن تلك التمثيليات ، مثلت الفرقة المسرحية بالمدرسة تمثيلية (الزار في القرية السودانية) وهي تعالج ظاهرة متواترة بين الاوساط الشعبية المتأخرة . وان كانت الظاهرة التقدمية الجديرة بالتسجيل هي الظاهرة المضادة واعني بها مقاومة الخرافات ، بطريق الصحافة وصحافة المراة على الخصوص وبطريق التوعية الذي تضطلع به جماعات الطلبة والمثقفين .

واذا كنت اقص هنا ما أتذكر من تلك التمثيلية ، فكأنما أحكي ما يراه الناس عادة في واقع الامر او شيئا قريبا منه .

زوجان سعيدان يعيشان معا في تعاون صادق ، مع اولادهما . واذ تمر الايام تلاحظ الزوجة ان كسب زوجها قد ازداد ، وان فلوسه قد تضخمت ، وان جيبه قد امتلأ، وانه بدا يكثر من الخروج والسهر ، وبدلا من ان ترى الزوجة من خلال هذه الظروف حكمة او دافعا لتهيئة الجو بالمزيد من الرقي المعيشي ومن بذل المزيد من العناية بالزوج والاولاد والشئون المنزلية ، امتلأت بالخوف

والتوجس من ان تصبح الظروف الجديدة حافزا للزوج بالزواج من غيرها . وفي ونسة نسائية انتظمت الجارات والصديقات لتلك الزوجة ينشأ حوار اساسه الجهل ومنطقه الشك ، والخوف وعدم الثقة بالرجال ، وينتهي بقرار يقضي باستنزاف الفلوس الزائدة باستخدام الحيلة. وحيث ان ممارسة المرأة لدلالها في الجو المعتاد لا يحقق هذا الفرض ، فالحيلة هنا هي ان تمرض الزوجة وان يستشير الزوج في امر مرضها الذي يستعصي على كل دواء ، وان تشير عليه النسوة بضرورة استدعاء العراف او العرافة لاقامة الزار ، الذي بواسطته يخرج الجن او العفريت الساكن في جسدها . ومن ثم تحظى بالشفاء ، ويطرد كل شر من جو العائلة . وتمثل الفرقة الزار الذي تقيمه العرافة من اجل المرأة المريضة بالطبول والاصوات المنكرة والالفاظ المبهمة . وعندما يستفهم الرجل على صحة زوجته تأتي فرصة العرافة باستخدام الحيلة فتذكر له ان زوجته لا يمكن ان تشفى بغير ان نشبع رغبة العفريت الساكن ، في سوارين من الذهب وفي ثوبين من الحرير ولكون التمثيلية هادفة ، فالرجل اذ يفطن للحيلة ،يعرض الامر على اصدقائه الذين يشيرون عليه ان يعالج الامر بالحيلة ايضا. وفي المنظر الاخير يقام الزار من اجل الرجل المريض ، ويطلب العراف ان تقوم الزوجة بطهو الوان معينة من الطعام وان تقدمها بنفسها لرجلها والا فالعفريت الذي يضمه الرجل لا يشبعه غير الطلاق . وتنتهي التمثيلية بالالفة بين الزوجين ، والسخرية والتهكم على العرافة والزار والممارسات والتقاليد البالية .

وبغض النظر عن الفرض من استخدام الزار في هذا المثال ، فهو ما يزال ظاهرة مرضية عصامية اجتماعية ، لها دلالتها الخطيرة التي تستوجب الحلول الكلية في مثل هذا القطاع من المجتمع .

* * *

ضمن تقاليد الزواج ــ في الاوساط الشعبية ــ ان تتأهب الفتاة للزفاف وان تعد لهذه المناسبة اعدادا مناسبا. ومن أجل ذلك تستعين الاسرة باحدى الخاطبات او (المعلمات) فتقوم بتمشيط شعر العروس ، وتصفيفه بعد ترطيبه بالزيوت والعطور. كما تقوم بتعليمها فنونا من الرقص يمكنها من اداء رقصات معينة في ليلتي الحنة والزفاف . وفي الليلة الاولى ــ الحنة ــ حيث يدعى الاهل والاقارب وبخاصة السيدات ، ترقص الفتاة مع خطيبها بحيث يكون معها حذرا من ان تقع على الارض اثناء الرقص كما تتعمد ان تفعل ــ أي ان عليه ان يمنع منها ذلك . والا فان عليه في كل مرة تفلت منه ان يدفع غرامة يتفق عليها .

وفي خلال الاسبوع الاول بعد الزفاف ، تلتزم العروس بتحية صاحباتها وضيفاتها المهنئات ، بتأدية رقصات الفرح امامهن ، تعبيرا عن استجابتها لمشاركتهن فرحتها بالزفاف . ويقضي العرف السوداني بعد ذلك ان يدق للسيدة المتزوجة بوشم على الشفة السفلى فيميزها من غير المتزوجات .

ولا تتبع هذه التقاليد برمتها او بحرفيتها ، في تلك الاوساط الشعبية ، فان لكل قبيلة معينة تقاليدها الخاصة بها ، فضلا على ما يصيب تلك التقاليد من تحوير او تعديل ، بقدر ما يحظى المجتمع من تطور او تغير .

ولقد دعيت ، وافراد اسرتي ، الى بضعة افراح سودانية في الطبقة المتعلمة (وهم بالطبع يفصلون بين جلسات الرجال ، وجلسات النساء) فلم ار التزاما بكل ما ذكرت من تقاليد بل لقد وجدت ان تيار المدنية يجرف في رفق بكل ما يزيد عن المعقول من عادات او من قيود . كما ان العرف الخاص بالوشم آخذ في الزوال عند الطبقة المتعلمة ، تماما مثلما هو حادث في عادة «التجليخ» . واعني بها تجليخ الطفل الصغير بخطوط معينة (او كيات أو خرزات) على وجهه تعطيه وسم ناسه او قبيلته ، وتطبعه بطابعها المميز التقليدي . فهذه العادة ما تزال متبعة بصرامة عند القبائل الرعوية والجبلية . ولكن الاسر السودانية المشتغلة بالزراعة والتجارة والمهن الحرة او الاسر المتعلمة والتي سكنت المدن ، قد اخذت بتأثير الحضارة المعاصرة ، تتنازل عن مثل هذا التقليد القاسي وترحم اطفالها من تطبيقه. واحسب ان الغاء مثل هذه العادة سيكون بمثابة الارتفاع الى مستوى القومية السودانية حيث لا تفرقة بين سوداني وسوداني .

* * *

اما عن النشاط الثقافي فسأقتصر هنا على ذكر بعض الظواهر والملاحظات ، كما انطبعت بها ذاكرتي، خلال مدة اقامتي في بورسودان. لقد كانت الظاهرة الثقافية الهامة ، التي كانت تسود تفكير الشباب السوداني المثقف في الفترة التي سبقت قيام ثورة ٢١ اكتوبر ١٩٦٤ تتلخص في ان اهتماماتهم الفكرية كانت تعكس القضايا الكبرى في السودان ، ففي نادي الخريجين وهو احد مراكز الاشعاع الثقافي في المدينة ، كانت تنعقد ندوات عديدة وتلقى احاديث ومحاضرات ، تناقش فيها معظم تلك القضايا ، وما تثيره الصحافة كذلك ، مثل مشكلة الجنوب ، ومثل الآثار المترتبة على بناء السد العالي ،ومثل مشروع خزان خشم القربة وما يتصل به من مشكلات التهجر لاهالي حلفا والنوبة ، ومشكلات توطينهم ، ومثل ري الاراضي الزراعية الجديدة بمياه البحيرة المتكونة خلف الخزان وتخطيط الاراضي التي تتكون منها حلفا الجديدة،

---

(١) استندت في هذا الحديث على المقال الذي نشرته لي مجلة الاديب الغراء بنفس العنوان . (٢) نشرت هذا الحديث بعد ذلك وبتعديل طفيف في عنوانه في مجلة الاديب الغراء في عدد يناير ١٩٦٣ ــ ونقلت خلاصة له مجلة « المجلة » الغراء بعدد فبراير ١٩٦٣ (باب المجلات العربية)

حلمي

حلمي الذي اعيشه احيا
في دوحه يبعث لي دنيا
محتضن فيها
أعذب ما فيها :
الحب والاشواق والدفء
جداول الاشراق والضوء ،
حقيقتي التي توافيني
على جناح وثير
باهرة تمنح تعطيني
حديقة من عبير .
لو كان لي هذا الصدى الازرق
هذا السنى ، هذا الشذى يعبق
لكان مني اليك
هدية في يديك
او كان لي ، او كان لي زورق
لاحمل الدنيا وما فيها :
نهارها الضاحي ، لياليها
هدية في يديك .

تطوان ــ المغرب احمد تسوكي

ومثل مشكلات القطن السوداني وتحسين مشروع الجزيرة الى آخر تلك الموضوعات . ولما كانت للنادي صلته الوثيقة بالمدرسة الثانوية وبأساتذتها ، فقد دعيت لالقاء حديث نفسي . وقد تحدثت عن «تطور مفهوم الشخصية» (١) واعقب الحديث مناقشة عامة . كما انني اسهمت في ندوة علمية بحديث عن «البترول» في مناسبة اتفاق الحكومة مع بعض الشركات الاجنبية بصدد التنقيب عن البترول على الشاطىء السوداني .

وتعتبر المدرسة الثانوية مركزا هاما للاشعاع الثقافي حيث تتكون جماعات للنشاط والانتاج ، مثل جماعة الفكر الاسلامي ، وجماعة الادب العربي ، وجماعة التاريخ ، وجماعة العلوم . ولا يقتصر نشاطها على محيط المدرسة ، ولكن يتعداه فيشمل المجتمع الخارجي حيث يشارك في ندواتها ومحاضراتها واحاديثها على مدار العام الدراسي . وثمة ظاهرة اخرى جديرة بالتسجيل هي ان جماعات الطلاب (والشباب السوداني المثقف عامة) كانت تموج بهم تيارات متعددة تمثل مختلف الايديولوجيات الفكرية . ومن ثم فقد كنت الاحظ ان الصحافة المدرسية (وهي صحافة قوية يشرف عليها الاساتذة) كانت مسرحا لقراءات جادة في مختلف الاتجاهات والفلسفات الدينية والاشتراكية والوجودية . وهي اذ كانت تبعث على الاعجاب والتقدير ، كانت تدعو ايضا للمزيد من توجيه المشرفين على امورها بسبب العناية بغربلتها بالحوار المنهجي ، او بالتقويم العلمي الخ . ولئن كان كثير من الطلاب يستعجلون بحماس وحرارة استقراء النتائج من قراءات سريعة ، فقد كانت الدلالة المهمة لذلك هي ان الشباب السوداني ــ ومن ورائه صحافة وراي عام ــ كان يحس بمسئوليات جسيمة بعد نيل السودان لاستقلاله في يناير ١٩٥٦ ومن ثم ازدادت اهتماماته لكي يضطلع بتلك المسئوليات ، على اسس من الفهم للتيارات الفكرية المعاصرة .

اما المحور الثالث للاشعاع الثقافي فهو النادي العربي ــ المصري ، وله صلته الوثيقة بالبعثة التعليمية العربية بالسودان ومدارسها ، وبالجالية المصرية . ويعتبر النادي مركزا للتبادل في الثقافة والرياضة والعلاقات الاجتماعية وهو يتحف المدينة باحياء ليالي رمضان ــ في كل عام ــ باحاديث التراث الاسلامي ، عدا ما يعقده من ندوات ادبية وثقافية في المناسبات الوطنية وغيرها . وعلى مسرحه كانت فرقة مدرسة الثغر المصرية التمثيلية، تقدم نشاطها وانتاجها . وبدعوة من جماعة النشاط الفكري اسهمت بحديث عن مفهوم التقدم عند ابن خلدون وكريستوفر روسون » . (٢)

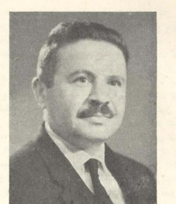
وتعد مدينة بورسودان هدفا للاهتمامات الانتروبولوجية . فان المدينة تستقبل في كل عام تقريبا طلابا من قسم الانتروبولوجيا بجامعة الخرطوم ، لعمل احصاءات ودراسات معينة . كما يقصدها هؤلاء الاجانب من باحثين او طلاب ممن يهتمون او يدرسون «الرطانات» المختلفة واهمها رطانة قبيلة الهدندوه (احدى قبائل البجه)

ويبدوان لهذه الرطانة عراقة تاريخية واهمية لغوية، لما يوجد بين الفاظها او كلماتها من تشابه مع كثير من كلمات اللغة المصرية القديمة .

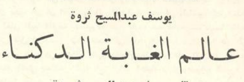
ومما يذكر في هذا الصدد ان مفتشا بريطانيا ممن عاشوا فترة طويلة بين سنكات وبورسودان قد الف قاموسا لهذه الرطانة (الهدندوه) مترجمة للانجليزية وقد طبعته جامعة اكسفورد .

ومن الدراسين الوطنيين لتاريخ بورسودان وظواهرها الثقافية واللغوية ، موظف سوداني متقاعد هو السيد م . ضرار . وقد الف في التاريخ القبلي كما الف قصة ادبية، نسجت حوادثها في الزمن القديم لهذه القبائل ، وتحتوي على ملحمة شعرية بهذه الرطانة ، تصور الحب السامي الرفيع ، واسمها ــ على ما تسعفني به الذاكرة ــ « تاجوج وهاجوج » وهما اسما البطلين الخالدين عند هذه القبائل، اللذين يقابلان القصة الخالدة في العربية « قيس وليلى » .

شبين الكوم ــ ج٠ع٠م **اميل توفيق**



يوسف عبدالمسيح ثروة



بقلم يوسف عبد المسيح ثـروة

* * *

أرثر ملر كاتب امريكي جاد ذو أصالة عميقة تنبع من درايته الواسعة للمجتمع الامريكي المعاصر ، وهو اذ يستعرض القضايا الاجتماعية – في ادبه المسرحي والقصصي – يستعرضها استعراضا موضوعيا وفنيا ، بأسلوب مشرق وديباجة ناصعة وصراحة جريئة . وهو اذ يفعل ذلك ، لا يبالي بقالة السوء اذا ما امتدت السنتها الحداد اليه بالتجريح والتقريع واللوم ، لانه كاتب يؤمن بأهمية الكلمة في تحريك المشاعر الانسانية وفي مقارعة الشر مهما يكن مصدره ، وهو – في ذلك – لا يستند الى الرموز ودلالاتها البعيدة الاشارة والتلميح ، بل هو يواجه الواقع مواجهة مكشوفة ، ولهذا السبب جاءت تعريته لهذا الواقع ، في اطاره الاقتصادي والاجتماعي ، على درجة كبيرة من الوضوح والجلاء والابانة .

وطبيعي ان يتعرض كاتب بمثل هذه الصراحة ، وعلى عهد جوزف مكارثي الى المضايقة والاستجواب والاخذ بالظنة ، لكنهلم يأبه بدوامة الجنون الاديولوجي والفورة الذرية التفتيشية ، بل على الضد من ذلك كله ، وقف بجانب قلمه وقفة المدافع الامين عن شرف الكلمة ، على حين خار الكثيرون وضعفوا وهانوا واضاعوا ما كنزوه من سمعة طيبة بين ليلة وضحاها من اضراب ايليا كازان ومن لف لفه وجرى مجراه . فكاتبنا اذن انسان عرف كل معاني انسانيته وعرف كيف يحافظ على كل هذه المعاني الجليلة من غير وهن او خور او ضياع ، ولم يكتف بذلك بل نراه يجعل من مسرحه قوة رافعة واداة نافعة ومنبرا حرا لا لعرض مساوىء المجتمع وفضحها والتنديد بها وحسب ، بل زاد على ذلك بان عرض هذه الصور البشعة على ضوء جديد من التحليل الاخاذ ، في حوار متماسك محكم يتسم بالرزانة والهدوء والجدية ، ويمتاز بالصدق والامانة والوضوح .

وفي تناوله للقضايا الاجتماعية الكثيرة التي تعتور الحياة الامريكية نراه اهلا لما يتناول جديرا بما يعالج صادرا فيما يعرض عن واقع مؤلم فاجع ، من غير محاباة لاحد او مداجاة لسلطة او مماحكة لمبدأ او تجن على حق او تطبيل لدعاية من هذه الدعايات التي تتلاطم امواجها في هذا الخضم او ذاك او تزخر في هذه البقعة من الارض او في تلك .

ولكن صراحته التي عرف بها لا تحط من جمال اسلوبه ولا تسف به في اي موضوع يتناوله ،ذلك انه يجمع بين المضمون والشكل جمعا فنيا متينا بحيث تكون الصورة والاطار وحدة عضوية حية ، لا تخلخل في انسجامها ولا انحراف في كيانها ولا غموض في مدلولاتها ولا ضمور في شخوصها ، سواء أكانت هذه الشخوص عفاريت الشر ام ملائكة الخير . انها تعرض كما هي من غير انتقاص او بتر ومن غير رتوش وزيادة ، او انتحال وتحوير وتهويش وتشويه . وهذه الموضوعية في الاداء المسرحي والقصصي هي السمة البارزة في اسلوب ملر بأسره وهي الداينمو الرئيس الذي يحرك نتاجه كله ، الامر الذي نلحظه بكل جلاء في مسرحياته «الحالة الطبيعية» و«الرجل المحظوظ» و «كلهم اولادي» و«موت بائعمتجول» و «البوتقة» و «ذكرىيومي الاثنين» و « منظر من الجسر» ومسودة فلم «العاجزون» وقصته «البؤرة» . واعماله الادبية هذه تمتد من سنة ١٩٤٤ الى سنة ١٩٦٠ .

ولما كنا سنتناول نماذج من بعض مسرحياته المارة الذكر فحسب فاننا اغفلنا نتاجه ما بعد سنة ١٩٦٠ متقصدين لئلا تكون دراستنا مطولة مملة . ومما يؤسف له حقا ، ونحن في هذا الشأن ، ان نذكر ان الدكتور عبدالغني خلفالله مراجع ترجمة «كلهم اولادي» وواضع مقدمتها،قد اشتط بهالقلم شططا بعيدا أذترجمكلمة The Crucible (البوتقة) بـ (المصلوب) وهو خطأ لا ادري كيف تورط فيه الدكتور المراجع ، ولا سيما وهذه الكلمة عنوان مسرحية مشهورة !

والمسرحيات التي نحن بصددها هي «كلهم اولادي» و «موت بائع متجول» و «منظر من الجسر» وكلها تفيض بروح انسانية ، يتجلى فيها سمو القصد والهدف ، في المضمون ، والصياغة الفنية الرفيعة ، في الشكل ، فضلا عن التجاوب الوجداني بين الكاتب والشخوص من جهة، والتناقض الحاد بين واقع الحياة وبين المثل العليا التي تلازم كل كتابات ارثر ملر من جهة اخرى. واذا علمنا ان ملر قد تأثر اعظم التأثر بدوستويفسكي ولا سيما بقصته «الاخوةكارامازوف» وتيشيخوف – في قصصه القصار ومسرحياته – واذا علمنا ان ملر عاش سنوات الكساد والضائقة الاقتصادية الشهيرة في الولايات المتحدة وقاسى منهما ما قاسى من شظف العيش وقلة ذات اليد ومرارة الحرمان وذل الفاقة ، عرفنا آماد انعطافه الوجداني وقسنا اعماق شعوره ، وتفهمنا حق التفهم حرارة اسلوبه وحيوية عرضه ، ووسعة ادراكه ، ونبل مراميه . ومن هنا كانت كل مسرحياته مآسي تنز دما اسود قتالا مسموما ، يسيل بوفرة وكثرة من كل وتر نابض من اوتار شخوصه الذين يعيشون في جو مغبر تعلوه غيوم دكناء ، مفعمة بشحنات كهربائية تتفجر غضبا وشررا ورجومامنحين الى آخر . فمن هؤلاء الشخوصهؤلاءالذينيعيشون في هذا الجو الداكن المغبر ، في هذه السراديب الآسنة انهم العجوز الزنيم الوغد جو كيلر بطل مسرحية «كلهم اولادي» وايدي الخال الغيور الذي يذهب ضحية لغيرته (١) والبائع المتجول المسكين الذي يفضل الانتحار على مذلة السؤال فيحقق بغيته تلك بسيارته في مسرحية « موت بائع متجول». ومع حيوية هؤلاء الشخوص وقدرتهم على احتلال اماكنهم في الحياة بعنف وجد وقوة ، فانهم لا يستطيعون التخلص من سلبيتهم ، ذلك انهم لا يستطيعون تغيير مجرى الحوادث في بيئاتهم ، بل نراهم ينجرفون مع التيار انجرافا اعمى ونراهم يستسلمون لضرورات الاقدار استسلاما حزينا مؤلما ، وهم بين شخص عملي كالرأسمالي كيلر وبين انسان نظري مسكين كوليم لومان وبين انسان اناني مثالي كأيدي (وهم على التوالي الشخوص الرئيسية لمسرحيات «كلهم اولادي» و «موت بائع متجول» و «منظر من الجسر») .

اما كيلر ، الذي يتسبب في قتل واحد وعشرين من مواطنيه ، بسبب تغطيته لعيوب سلندرات الطائرات ، فهو لا يكتفي بجريمته هذه بل انه لكي يتنصل منها تماما يضع وزر الجريمة على كاهل شريكه (ستيف) وهكذا يخرج المجرم الحقيقي من السجن ليدخل فيه بريء كل

البراءة ، لا لسبب الا لان كيلر يستطيع الاحتيال على القانون بينما شريكه يقع في الفخ لانه عاجز عن مثل هذا الاحتيال ، وهو الانسان الساذج الذي لا يعرف الطريق الى تبرئة ذمته بله الاقتدار على مثل هذا الاحتيال والتمكن منه. وهنا نجد النقيضين على صعيد واحد . الاثنان رجلا اعمال ، لكن الاول انسان خبيث شرير اناني يعمل كل ما يستطيع عمله ليزيد من ثروته ، والاخر انسان ابله مسكين يقع بسهولة في الفخ الذي نصب له فلا يتمكن منه انفكاكا ، وكل الاصابع الاصطناعية تشير اليه بالاتهام . ومن هنا ، فهوة الجريمة التي يتورط فيها كيلر تستمر في الاتساع والانحدار معا حتى تصل الى قرار رهيب ، قرار تكشفه خطيبة (لاري) ابن كيلر ، الطيار الذي ينتحر ، اثر سماعه بفضيحة ابيه ، وقبل ان يفعل ذلك يرسل رسالة الى خطيبته ينبئها فيه بعزمه على مفارقة الحياة. وطبيعي ان تكون لهذه القنبلة التي تفجرها الخطيبة تأثيرها الهائل في الاسرة بأكملها وبخاصة في نفسية الاب المجرم كيلر ، الامر الذي يدفع به الى الانتحار .لكننا قبل ان ندرك هذه الذروة فيمرقانا اليها علينا انيستمعالى اعتراف الابالقاتل وتبريره لفعلته تلك ففي كليهما نور كشاف ينفذ الى اعماق المجتمع الراهن ، فيرينا اياه عاريا من كل زخرفومن كل تزييف وتزيينوتزويق. هاكم ما يقوله الاب لابنه كريس وخطيبة ابنه (لاري) (٢) : « في اليوم الذي عدت فيه الى بيتي نزلت من عربتي ... لكنني لم انزل امام البيت ... ليتك كنت هنايا آني (خطيبة لاري). وانت كذلك يا كريس. اذن لتفرجتما . كان كل واحد يعرف انني سأخرج من السجن في ذلك اليوم . وضاقت مداخل البيوت بمن فيها . تصوراها الان . ما من احد كان يعتقد انني بريء . كان ما يجري على السنتهم انني ورطت رجلا شريفا وبرأت نفسي . ولكن بكل تؤدة ... وضعت ابتسامة على شفتي.الوغد ! كنت انا ذلك الوغد . الرجل الذي باع أغطية سلندرات مشدوخة لسلاح الطيران . الرجل الذي تسبب في سقوط طائرة ٤٠ ـ ب وقتل واحد وعشرين طيارا في استراليا.كنت يا صغيرتي ، وانا امشي في الشارع في ذلك اليوم ابدو لهم مذنبا كالشيطان نفسه .» غير ان المجرم هذا لا يستمر في اعترافه الى هذا الحد حتى يتنصل مما قال فيستدرك : « لكنني لم اكن كذلك .كنت احمل في جيبي شهادة من المحكمة تثبت براءتي . ومشيت...امام...البيوت فماذا كانت النتيجة ؟ عدت بعد اربعة عشر شهرا صاحب مصنع من اكبر المصانع في الولاية كلها ، رجلا محترما مرة اخرى . اعظم من ذي قبل .» (٣)

ومع ما في الجريمة النكراء من ضياع للمسئولية تجاه الوطن والانسانية ، وخرق فاضح لحرمة المواطنة الصالحة وتشبث فج بالمصالح الفردية الرعناء على حساب ارواح المواطنين الذابين عن حياض اخوانهم واخواتهم ، ومع ما في هذه الجريمة من اماتة للضمير واستهانة بكل المقدسات والاعراف والشرائع ، وغدر لئيم يمزق بانيابه كل كرامة ومنقبة وفضيلة ، فان الذئب العجوز والقاتل الزنيم لا يجد مانعا من تبرير فعلته ولا يستحي من القول ، وكأن للذئب بقية حق في ان يدلي بحجته امام ولده كريس : « انك ما زلت قليل الخبرة بالحياة . ماذا كان بوسعي ان افعله ؟ انني رجل اعمال . آدمي، رجل اعمال. تنتج مائة وعشرين قطعة مشدوخة فاذا بك تفقد عملك... انك لا تعرف كيف تشتغل . انتاجك لا يصلح.يغلقون مصنعك ويمزقون عقودك . وماذا باسم الشيطان يهمهم ذلك ؟ تقضي اربعين سنة في عملك فيقلعونك في خمس دقائق ... أأدعهم يسلبونني حياتي !»

اما كريس ، الابن الانسان ، فانه يستمع الى والده الذئب باذن طرشاء ، لان له مذهبه الانساني الذي لا يعرف معنى لتبرير الجريمة مهما يكن هذا التبرير معقولا ، لان الجريمة مفازة ما ان يعبر الانسان حدا من حدودها حتى يتيه فيها ويضل مهما اغذ في السير ظانا السراب ماءا ، والعاصفة الهوجاء سحابة غيث ممطرة ، انه يعود من حيث اتى وسيعاود السير مرة ثانية وثالثة من غير جدوى ، لانه يدور كما يدور ثور الطاحونة ، معصوب العينين ، بسبب انانيته ، التي وان لم تقتصر على نفسه ، اذ قد تشمل اسرته ايضا ، لكن العذر هنا افظع من الذنب بل من الجريمة نفسها ، فان كان يشعر بأبوته وبنوة ابنائه ، فلماذا لا يشعر بأبوة البشر الاخرين ، وقد تحدث ابنه عن المسئولية والاخوة ، اخوة السلاح ، حديثا كان ينبغي ان يثير فيه الشعور بالاثم ، الشعور الذي يصفع كل كبرياء وخيلاء ، الا ان قلبه الجامد المتحجر ، كان من السمك والكثافة الرصاصية ، بحيث لم ينفذ اليه شعاع واحد من اشعة الخير والنبل والانسانية ، تلك الاشعة التي تتأجج لطفا ورقة وشفافية من حديث كريس حين يقول : « كنت ارى الموت كل يوم وكنت انت تقتل رفاقي ثم تقول انك كنت تفعل ذلك من اجلي ، قل لي ، باسم الشيطان ، ماذا تظن فيم كنت افكر ؟ في عملك لعنة الله عليه ، أهذا هو الحد الذي يستطيع ان يصل اليه ادراكك ...العمل ؟ ما هذا؟ والعالم !...أليس لك وطن ؟ الا تعيش في الدنيا ؟ من انت باسم الشيطان ؟ انكلم تصل الى مرتبة الحيوان، فما من حيوان يقتل ذويه .من انت ؟ ماذا ينبغي علي ان افعل بك؟..» ولذا نراه يرد على اقوال ابنه من وراء ظهره فيقول مخاطبا زوجته : «كان يجب على ان اقذف به الى الحياة ، وهو في العاشرة كما قذف بي أهلي اليها فالزمه بكسب ما يقوم بأوده فيعرف حينئذ ما يكابده الفتى قبل ان يصير شابا منعما في هذه الحياة ...» هذا هو الرد المفحم ، هذه هي الدالة التي يتفضل بها الاب على الابن ، لتكون السند الذي يستند اليه في اثبات احقية رأيه وصواب فكره ، ورجاحة عقله !

ولما يجد كريس نفسه عاجزا عن ان يعمل شيئا ما لاراحة ضميره ، ينخرط في البكاء المر ، بعد مناجاة مرة ، فيثير هذا المشهد الام وتتساءل عما كان يتحدث به : « الام عم تتحدث ؟ ماذا بوسعك ان تفعل غير ذلك ؟ (٤) »

وهنا يجيبها كريس قائلا : «كان بوسعي ان اسجنه لو انني احتفظت بانسانيتي ، ولكنني صرت الان على شاكلة الناس جميعا . انني الان رجل عملي ، اجل ، لقد جعلتم مني رجلا عمليا .» وحين تذكره (آن) بواجبه ، وقد سجن ابوها ظلما وعدوانا ، تعود حميا الانسانية اليه طاردة ـ في طريقها «الرجال العمليين» وتحمله على ان يحكم على مجتمعه حكما كله صواب وصدق وحق ، فيقول : «كنا في الميدان نطلق النار على كل من يسلك سلوك كلب دنيء.ولكن الشرف هناك كان شيئا له معناه.. اما هنا ؟ في هذا البلد ، بلد الكلاب الفخمة الضخمة . فان المرء لا يحب من عداه . بل انه يأكل لحمه .هذا هو المبدأ... المبدأالوحيد السائد بيننا ... اننا نعيش في حديقة حيوانات . »

الا ان ملر سرعان ما ينتبه الى ما لهذه البلادة من أثر في النفوس، وزراية بالانسان ، مهما يكن هذا الانسان من الانحطاط والتردي والتخلف ، على الصعيد الاخلاقي ، فيدفع بكيلر لكي يتأثر بهذه الاقوال، ويحمله على الانتحار ، بعد ان اصبحت عزيمة كريس على الرحيل من الدار ، حقيقة واقعة .

ومع ان وليم لومان بطل «موت بائع متجول» يموت موتا بطيئا ، الا انه لا يمثل نفسه بل هو يمثل طائفة من الباعة والتجار الذين يحيق بهم الكساد فيتناثرون تناثر اوراق الخريف ، كلما اصابتالكيان الاقتصادي الفردي رجة او نكسة او ضربة . وحين يبدأ وليم بالموت يبدؤه هنيا يسيرا ، بلا قيل وقال ، وبصورة طبيعية على وفق المتبع من الاصول المرعية ، في هذه الطريق الجديدة من الموت البطيء الذي اصاب ويصيب الكثيرين من البشر المرتفعين على اكتاف غيرهم ، والهابطين ، يوم الازمة ، الى اقدام غيرهم من غير جدوى . لان الانسانية نفسها بضاعة من بضائع شعار (الشغل شغل) . ومن دلائل

---

(١) في مسرحية «منظر من الجسر» (٢) اعتمدنا في ايراد الشواهد على ترجمة الاستاذ حسن عبدالمقصود حسن لمسرحية «كلهم اولادي».
(٣) هذا الشاهد اعتمده الدكتور عبدالغني خلفالله في مقدمته ايضا.
(٤) تعنى غير البكاء .

هذا الموت هو الشعور العنيف بالوحدة والانفراد والابتعاد عن القطيع البشري ، ولذا نرى (ولي) يقول : « اني اشعر بوحدة شديدة . خاصة حين يكون الشغل رديئا وليس من تتحدث اليه . اني اشعر كانني لن ابيع شيئا ابدا .» غير ان هذا الشعور بالوحدة لا يمنع صاحبه (بين) من ان يوكد على الفردية ويرفع من شانها ويجعلها المثل الاعلى في هذه الحياة ، ولذا نراه يقول معتدا بنفسه فخورا بما ادرك ووصل اليه : « عندما كنت في السابعة عشرة سرت الى الغابة ، وعندما بلغت الحادية والعشرين خرجت منها (يضحك) وبالله قد اصبحت غنيا . » وحين يمازح بين (بيف) ابن صديقه (ولي) ينصحه بقوله : « يا بني لا تصارع غريبا صراعا شريفا . فانك لن تستطيع ان تخرج من الغابة بتلك الطريقة .» والذي يزيد في نزع ولي الما وفجيعة ممضتين ، ان ابنه (بيف) لم يكن غير طائر لا يحل في مكان حتى يرحل منه سراعا والى هذا أشارت الام ليندا حين قالت : « بيف ، ان الانسان ليس طائرا يحل ويرحل كلما اقبل الربيع.» ومن اجل ذلك فان بيف لا يستطيع ان يمسك بطرف من اطراف الحياة كما يعترف اعترافا صريحا امام والدته اذ يقول : «اماه ، انني لا اقدر ان امسك بنوع من انواع هذه الحياة ، انني لا اقدر على ذلك .»

اما ليندا فهي وحدها تعرف ما يحدث لزوجها ولذا نسمعها تحدث ابنيها هابي وبيف قائلة : ولي لومان لم يصنع مبلغا كبيرا من المال ، وهو ليس احسن انسان عاش (في هذه الدنيا) ولكنه كائن انساني وها ان شيئا مرعبا يحدث له ، ولذا ينبغي الحذر ، او لا ينبغي ان يسمح له بان يسقط الى قبره ككلب عجوز .» ثم تستطرد شارحة سبب هذا الانحدار الفاجع ، فتقول والالم يحز في قلبها حزا عميقا ، « لقد عمل لشركة ستا وثلاثين سنة بحلول آذار هذا ، وفتح لبضائعها العديد من المناطق غير المسموع بها ، ومع ذلك فقد منعوا عنه راتبه وهو في هذه السن الطاعنة .»

ومع ذلك كله ، لم ينضب رجاء لومان ، اذ ظل ايمانه وثيقا بهوارد ابن صديقه ، رجل الاعمال المعروف ، ولذا حملته قدماه اليه في تؤدة وبطء ، وبعد ان واجه صاحبه مواجهة العم لابن اخيه ، شرح له حاله وما يعانيه من كرب العيش ومذلة العوز وقد فقد مورد رزقه ، وضاع امله في ابنه (بيف) الذي خيب ظنه ، وفي ابنه (هابي) الذي استعلى عليه بعد ان اصاب من رغد العيش ما اصاب ، فكان تنكرهما له حملا فادح الثقل انقض ظهره ، فجاء الى هوارد يشكو له ما لحقه من نوازل الزمن وعوادي الدهر ، فيطالبه بشغل يدر عليه خمسة وستين دولارا في الاسبوع ثم يتنازل الى الخمسين فالاربعين ، غير ان هوارد يأبى الا ان يرده خائبا صفر اليدين من كل امل في الحياة الكريمة ويذكره بأبنيه فيرد عليه : «انا لا استطيع ان ارمي بثقلي على ابنائي ، اذ اني لست مقعدا كسيحا .» وعلى اثر هذه المقابلة الجافية الجافة ، يخرج هوارد من مكتبه بحجة الاجتماع باصحابه الذين ينتظرونه خارج المكتب ، من غير ان ينسى ان يوجه النصائح الى لومان، بوجوب الاعتماد على النفس... ثم يخرج لومان فيصادف (بين) صديقه فيبث له لواعجه بصوت مثير اشد ما تكون الاثارة : « بين ، لا شيء يتزحزح من مكانه ، انني لا ادري ماذا افعل.»

وفيما هو يتمرغ في اوحال الحرمان ، ينقطع شحيح رزقه نهائيا ، اثر طرده من الشركة التي ظلت ترفده بما يقيم به اوده ، واذا بها بغتة تقطع هذا الرفد الضئيل ، وهنا نراه يوجه كلامه الى (بيف) الذي اشبعه بالوعود المعسولة ويقول له : «لست مهتما بما حدث في الماضي ، لان الغابات مشتعلة ، اتدركون ذلك يا اولاد ، ان نارا كبرى تتنقل من هنا الى هنا حولنا .لقد طردت اليوم مما بقي لي من عمل.» وحين يتساءل الابن مرعوبا عن مدى صحة ذلك الخبر يجيبه الاب : « لقد طردت ، وانا اترقب اخبارا صغيرة حسنة ، كي انقلها الى والدتك ، لان المرأة انتظرت ، لان المرأة عانت ما عانت .»

وبعد كل هذا العذاب يظل امل واحد يداعب خاطر لومان ، ذلك ان ابنه (بيف) قد حصل على وعد من صديقه اولفر ، ان يجد له عملا يدفع به غائلة الفاقة ، الا ان المقابلة التي كانت موئل الامل ، ومرفا الرجاء ، لم تنته الا كما انتهت مقابلة الوالد ، اذ خان الصديق صديقه ، وظلت وعوده وعودا تذروها رياح الواقع ، ذلك ان شهامة الصداقة متى ما امتطت صهوة جواد المال ، اضاعت معانيها النبيلة بضياع صلتها بالبشر . واخيرا يحمل لومان على الانتحار للتخلص من عار الفقر ، وهكذا ينفض يديه من هذه الحياة الثقيلة ثقل الرصاص.

اما مسرحية «منظر من الجسر» فهي مأساة فظيعة تنز بحب غريب، حب حرام فيه معان شيطانية تتطاير كالشرر من هنا وهناك في ثنايا المسرحية حتى تتجمع نارا تأتيعلى أيدي الشخص الرئيس فتحمل روحه الشنيعة البشعة الى الجحيم ، بعد ان يكون قد حقق غايته في الفصل بين ابنة اخته كاترين والمهاجر الايطالي رودولفو .

وهذا الحب يبدو اول ما يبدو محبة ابدية وعاطفةانسانية وحنانا لطيفا يمحضها (ايدي) جميعا لابنة اخته اليتيمة ، البنت المحبوبة ، التي تسر الناظرين بجمالها العذب ، وابتسامتها الشفافة ، وحلاوة صوتها الرخيم ، وقامتها الهيفاء ، وبساطتها البريئة . وهذه المحبة الشاملة تتجلى اول ما تتجلى في رفض ايدي ان تشتغل كاترين ولو انها قد بلغت السادسة عشرة ، والاجر الاسبوعي خمسون دولارا ، والعمل هين سهل في دائرة محترمة لشركة محترمة ، انه يرفض توسلها ويقول : « انتبهي ، انني لم أسألك مالا ؟ ألم اقتك هذه المدة الطويلة واقم باودك ، أفلا يسعني ان اعينك مدة اطول ؟» الا اصرار الفتاة واصرار زوجته عليه بان يفسح المجال لكاترين لتجرب حظها في هذه الدنيا يثير شكوكه ويجعله ينتفض ويقول مخاطبا كاترين : « الشيء الوحيد الذي اسألك اياه . لا تثقي بأحد . ان لك عمة ذات قلب كبير جدا، وانت قد تعلمت اشياء رديئة منها ، صدقيني (هذا هو الواقع)». وعندما تقول زوجته بياتريس : «ماذا في ذلك ؟ انها تحب الناس .» يرد عليها زوجها قائلا : « لان معظم الناس ليسوا اناسا ، انها ستشتغل مع عمال الميناء ، انهم سيقطعونها اربا اربا ، ثم يزدردونها ، اذا لم تنتبه كل الانتباه .»

ثم يحل في بيت ايدي ضيفان من أقارب بياتريس ، من هؤلاء الايطاليين المهاجرين ، وهما الاخوان ماركو ورودولفو ، والاول رجل متزوج والثاني شاب عزب يفيض رجولة وقوة وبأسا ، يحدثنا الاول عن حياة اسرته في احدى المدن الايطالية الصغيرة قائلا : « ان زوجتي هي التي تطعمهم (يعني الاولاد) من فمها ، فاذا بقيت هناك فانهم لن ينموا ابدا ، لانهم لا يجدون شيئا يأكلونه غير شعاع الشمس .» اما رودولفو ، فقد حدثنا الحديث نفسه ولكن بأسلوب آخر انه يقول : «الخيول في مدينتنا اضعف من المعزى ، ولذا فاذا كان عدد المسافرين كثيرا ، فنحن الذين ندفع العربات الى الفندق . (يضحك) الخيول في مدينتنا موجودة من اجل المنظر لا لشيء آخر .»

وبعد ان يتم التعارف بين كاترين ورودولفو ، يتم التآلف والتوادد ثم الحب الذي يشد القلوب شدا عنيفا ، وما ان يبلغ الحب هذا المبلغ من العنف ، وما ان يشعر ايدي بقرب ضياع كاترين حتى ينتفض ساخرا فيقول : «عملت كالكلب عشرين سنة ، ويأتي انسان تافه ليسلبها مني.. انني اطعمتها من لقمة فمي ومن لقمة فم زوجتي ، وطالما سرت جائعا الكثير الكثير من الايام في هذه المدينة ... وعلي الان ان اجلس في بيت وانظر الى ابن الكلبة هذا ، هذا التافه الذي جاء من لا مكان ! اعطيته بيتي لينام فيه ، واعطيته ما التحف فيه ليدثر به ، وهو يرفع يديه القذرتين ليضعها عليها كاللص اللعين .» وهنا يتدخل المحامي الفيري ويقول: «ايدي ، انها تريد ان تتزوج. وهي لا تستطيع ان تتزوجك ، اليس كذلك ؟» ولكن الرجل لا يفهم ذلك ، لان كيله طافح بحب كاترين ، ومن اجل ذلك يشي بضيفيه ، فيلقى القبض عليهما لانهما خالفا قوانين الهجرة الامريكية ، ومن اجل هذا يلقي (ايدي) ، حتفه على يد ماركو الذي ينتقم منه ، لانه سيكونالسبب في موت اطفاله جوعا .

بغداد — يوسف عبدالمسيح ثروة



بقلم ناجية ثامر

ـ عصام ، ماذا تفعل يا عصام ؟؟

صاحت سعاد باعلى صوتها ، مضطربة الاوصال مرتعشة ، حين رأت خطيبها يضغط على عنق قطتها البيضاء الصغيرة ، فماءت القطة وحاولت الدفاع عن نفسها بتخديش المعتدي عليها .. ولكنه كان اقوى منها ، فماءت مرة ثانية متوجعة مستنجدة ، وتدلت ساقها البيضاء ، التي كادت تحطمها اصابع عصام القوية ، ولم تجد مفرا للتخلص من الكلابة الحديدية الاخذة بالضغط عليها بدون رحمة ...

انحلت الكلابة الحديدية حين سمع عصام الصيحة المفاجئة ، فانفلتت القطة من يده وهي تعرج وتموء ، ونظر الى سعاد وفي عينيه يلتمع بريق يتمازج فيه الغضب والسرور معا ..

انحنت سعاد على قطتها وحملتها، واخذت تلثم رأسها القطني ، لتعزيها عما لحقها من عذاب وويل ، فنظرت القطة اليها بعينيها الزرقاوين اللامعتين ، كأنها تلومها وتعتب عليها لتركها فريسة بين يدي خطيبها القاسي، ثم اخذت تلعق معصمها شاكرة لها ظهورها في الابان لنجدتها ..

تركت سعاد القطة بعد ان اطمأنت عليها ، وتقدمت من عصام وقالت له بلهجة تجمع بين اللوم والتعجب ، محاولة ان تكون هادئة للغاية : عصام ، لماذا تكره فلة ؟ ماذا صنعت لك المسكينة ؟ لقد لاحظت بأنك قاس جدا مع الحيوانات البكماء ، لم ذلك يا عصام ؟

جاوب عصام : الحيوانات ؟ لماذا تعطفين عليها كل هذا العطف يا سعاد ؟ اتدللين وتعطفين على القطة الصغيرة ، ولا تأبهين لاولاد الفقراء الذين يعانون من الجوع والعري اشد معاناة ؟ هذه القطة تكسب عيشها وحدها لما اولاها الخالق من مؤهلات طبيعية، فهي تتسلق الاشجار وتصطاد العصافير والحشرات ولا تحتاج لكساء .. انها ليست بحاجة لرعايتنا ، كحاجة اولئك الصغار الذين لا يملكون من وسائل الدفاع عن نفوسهم شيئا ...

ـ او تحسبني لا اعطف على اولئك يا عصام ؟ كلما رأيت طفلا هزيلا ممزق الثياب ، حافي القدمين ، ناقص الرعاية والغذاء ، يدمي فؤادي دميا ، ولكن ماذا تريدني ان اصنع ؟ يمكنني ان اربي قطة وقطتين واكثر ولكن لا يمكنني ان اضطلع بتربية اولاد الفير لما يلزم ذلك من تكاليف باهظة .. ابناء آدم يلزمهم الكثير من المصاريف والعناية، ليكبروا ويستطيعوا ان يقوموا بشؤونهم بانفسهم ، اما الحيوانات فلا يلزمها الا القليل من فواضل الاطعمة .. فلا لباس ولا منزل ولا مدرسة ولا طهي ... والكثير من الحيوان خلقه الله لخدمة الانسان او توفير غذائه .. هذه القطة مثلا ، انها لا تؤكل ، ولكنها تفترس الحشرات والفئران ، وتؤنسني وتسليني ، وتكتفي بالفضلات ...

ـ انا اكره الحيوانات .. وخاصة القطط والكلاب ..

لفظ عصام هذه الجملة وكأنه ينفس عن فؤاده غيظا مكتوما وحقدا دفينا ..

ـ ولكن لماذا ؟ ما الذي جعلك تكره الحيوانات التي خلقها الله اضعف منك ، واوصاك بها خيرا ، وطلب منك ان تكون رحوما شفوقا عليها ، لانها لا تنطق ولا تستطيع الافصاح عما يساورها من الم كما نفعل نحن ؟؟ نحن نملك جميع الوسائل ، مما حبتنا اياه الطبيعة ، ومما اخترعناه بأيدينا للدفاع والمهاجمة اما الحيوانات فهي تحت سيطرتنا .. اولا تعرف يا عصام بانها تحس كما نحس ، ولها روح تشعر بالالم كما نشعر نحن ؟ كم من مرة رددت على مسامعك هذا القول ، ولكنني اراك لا تريد ان ترحم ولا تريد ان تفهم ...

لم يملك عصام نفسه فصاح : كفى يا سعاد ، لا اريد ان تلقنيني ماذا يجب علي عمله ، وماذا يجب ان احب وان اكره .. انني ابغض القطط والكلاب ، ولا املك ضد هذا البغض شيئا .. كلما رأيت قطا او كلبا يروق لي ان يتعذب تحت بصري ..

دمعت عينا سعاد شفقة واسى .. اجل انها لا تملك ضد هذا الكره شيئا ، وانها لتعرف سلفا بانها لا تستطيع ان تقتني اي حيوان حين تنتقل الى منزله .. وانها لتذكر تلك الليلة ، التي لم يطرأ عليها فيها النوم .. لقد ركبت مع خطيبها في سيارته للذهاب معه الى السينما ، وفي اثناء السير اعترض السيارة كلب يهرول ليقطع الطريق .. كانت السيارة تسير ببطء ، وعصام يدندن بأغنية، واذ به يتوقف عن الغناء ، ويضاعف من السرعة ، ويتعمد ان يسد على الكلب المسكين السبل ...

صاحت سعاد وقتها : عصام ، ارجوك ، خفف من السرعة،انك ستقتل الكلب المسكين، وغطت عينيها بأصابعها وهي ترتجف ، فلقد مرت عجلات السيارة على جسم الكلب قبل ان تتم كلامها ، وسمعته يئن بصوت يفتت الكبد، والتفتت الى الوراء ، فلمحت جسمه ملطخا بالدم ، فاخذت تبكي وتصيح بعصام : لقد قتلته عمدا كان في وسعك ان تتحاشاه ، ولكنك لم تفعل ، لقد ضاعفت السير حتى لا يهرب منك .. قل لي لماذا فعلت ذلك الا قل.

اوقف عصام سيارته ، ومد ذراعه فطوق كتفيها ، وشد بيده الاخرى على ذقنها ، وحدق في عينيها الدامعتين وعلت قهقهته : يا لك من مجنونة ظريفة ، امن اجل كلب حقير تذرفين هذه الدموع ؟ ثم اخرج منديله ومسح دموعها ، وحاول ان يلثم شفتيها ، فانحنت الى جانب ولم تدعه يمسها ..وفجأة فتحت باب السيارة وجرت الى مكان الكلب ، فرأت انه قد لفظ انفاسه الاخيرة ، فرفعته عن الارض برفق ووضعته بجانب شجيرة على الرصيف ، ورأت عصاما وهو يراقبها بعد ان خرج بدوره من السيارة ، ولما عادت واحتلت مكانها ، كان بودها ان تعود الى المنزل ، ولم يعد فيها اي ميل لرؤية الشريط الذي كانت تتوق الى مشاهدته ، وكانت تسائل نفسها طيلة الوقت : لم فعل عصام هذا ؟ ما له يقسو هكذا على الحيوان ، انه شاب مثقف ، ظريف ولطيف ، فكيف تعلل هذه القسوة منه نحو الحيوان الضعيف ؟ وكانت كلما حاولت ان تحدثه عن الكلب ، ضحك هازئا ساخرا معابثا .. وبقيت بعد هذه الحادثة ترقد رقادا مزعجا مشوشا ...

وها هو اليوم يقسو على قطتها ، ويتلذذ بتعذيبها ، ولولا ظهورها فجأة ، لقتلها خنقا ... لقد اظهر لها بانه لا يعبأ بمراضاتها ، وبان قسوته نحو الحيوان الضعيف لن تتبدل.

انها تحب عصاما اشد الحب ، ولقد آلت على نفسها ان تبذل جهدها لاسعاده ، وكانت تعتقد ان يوم عقد القران سيكون اسعد يوم في حياتها ، وعبثا حاولت ان تفهم سر هذه القسوة .. انه ارق الناس معها ومع كل انسان ، ولكنه عدو الحيوان الالد ...

دخلت يوما الى المنزل ، فأخبرتها الخادمة بان امها متغيبة ، ولكن خطيبها في قاعة الاستقبال بانتظارها ، فاسرعت لاستقباله ، ولكنها توقفت فجأة امام الباب ، واخذت تنتحب وتشهق ... رأت قطتها الجميلة ممددة على الارض وهي تنطوي وتئن ، وعصاما واقفا امامها كالجلاد ، تلتمع في عينيه امارات



كلمة

ان قتلت الشوق واللهفة في قلبي الحزين
وسفحت العمر للاوهام من بعد اليقين
وتراءى لك أني لست من ماء وطين
فاعذريني ... انني غيرت ديني
أنت قد جرعتني كأس الهوان
وحرمت القلب من دفء الحنان
فامحى صفو زماني
والاماني ...
ذبلت قبل الاوان
واذا ما كنت قد سرت على دربك خطوه
وعلى ثغري للايام غنوه ...
فلاني كنت طفلا طاهر القلب بريئا
ينشد الحلم الوضيئا ...
فوداعا .. سوف امضي في طريق العمر وحدي
وسأنسى كل شيء ... غير كلمه
قلتها يوما اليك
وأنا أبكي عليك
كلمة أودعتها أمسي ويومي
وأرتني الحب في عالم وهمي :
أنت في عيني ملاك ، أنت لي أجمل حلم
أنت نور من سماء الروح يهمي ...
أنت أمي !!

عمان — عبد الرحمن سالم عاليه

التشفي والسرور .. لقد ضربها بعصا مدببة كانت في يده، ووقف يتلذذ بتوجعها ونزاعها.

تقدمت سعاد وجسمها يرتجف ارتجافا ، ووضعت القطة على ركبتيها ، واخذت تمر باصابعها اللينة على رأسها ، والدموع تنساب من مقلتيها ، وكانت القطة تنظر اليها بعينين اخذت الحياة تنطفىء فيهما رويدا رويدا ، وهي تموء بصوت خافت حزين ، تشكو لها من ظلم ذلك الجبار الذي لا يرحم ولا يلين ، وتعاتبها على تركها بين يديه .. وبعد لحظات اختلج جسمها الصغير ثم ماتت ..

تقدم عصام من سعاد ، ووضع يده على كتفها ، وقال لها : كفى بكاء ، لقد خدشتني اللعينة حين اردت مداعبتها ، وها قد نالت جزاءها .. دفعت سعاد يد عصام عن كتفها بحدة وغضب ، وصاحت : اليك عني ، لا اريد ان اراك بعد اليوم .. لا اريد ان اراك .. لا يمكنني ان اعيش مع انسان قاسي القلب مثلك ..

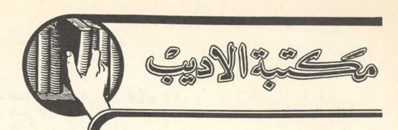
واندفعت خارجة من الباب ، حاملة قطتها القتيل ، عازمة على قطع كل صلة بينها وبين هذا الخطيب المتحجر القلب . دار بها الاهل والجيران لائمين عازلين : ماذا بك يا سعاد ؟ أمن أجل قطة تفصمين علاقتك مع خطيبك الحبيب ؟ انه من اكثر الناس تأدبا ولطفا وكياسة ، ستخسرينه يا سعاد ..

من اجل قطة؟ انهم لا يستطيعون ان يفهموا، بأنها ستصر على المطالبة بالطلاق ، لا من اجل قطة ، بل لان قسوته اذابت كل ما كانت تضمر له في فؤادها من محبة ومودة واعزاز. لم يعد في امكانها ان تعيش معه .. لقد تبدل حبها الى خوف ورعب منه ليس في وسعها التغلب عليهما ..ولم يعد في امكانها ان تنظر الى عينيه الساخرتين الشامتتين ، ولا ان تسمع قهقهته البغيضة ، امام الحيوان الذي يتلوى من الالم امامه ، بدون ان تتحرك شعرة في جسمه اشفاقا ورحمة .

لا .. ليس من اجل قطة لم تصنع اي شر معه ، ستسعى الى الطلاق ، بل لان وحشيته تخيفها .. وكلما نظرت الى اصابعه يرتجف قلبها رعبا وستتخيل بأن هذه الاصابع ستمتد الى عنقها لتسلبها الحياة .

اجل .. محال ان يفهموا كيف ان الحب العظيم ينقلب الى رعب وكره من اجل .. قطة ؟..

تونس — ناجية ثامر



حين قرع الجرس

مجموعة قصص ــ تاليف توما خوري ــ ٢٠٠ صفحة ــ منشورات دار الطليعة ببيروت ــ المطبعة (؟)

عندما لمحته في أبهاء دار المعلمين يتحدر ولا يتخطر ، كمن يدفع بصدره الوجود دفعا ، وكانما خلق ليتجه في الامام ، غير معطى ان يلتفت يمنة ، او يهدف يسرة ، او يتراخى الى وراء .

عندما لمحته ، دنوت فابصرته ، تعارفنا ، تلاصق شيء من ذاتي بشيء من دخيلته ، وهرب شيء مني عنه ، لا عن مقة ولكن عن غرابة ، وما زال بي ، وما زلت به ، حتى غمس كيانه في شؤوني ، وتلامست مع حنايا ذاته ، فاذا بنا « سكرنا بها من قبل ان يخلق الكرم » .

مشيق على حيوية نهر يبعثر حوله جداول من دفقه ، أسمر بمهابه ، تنبسط على ملامحه مسحة طفولة لا تراهق ، وتنزرع في حديثه فترة بعد فترة ، حركة الفناها كانها ترسم اصابعه ، وكفيه ، وجلسته ، وضحكة تصور أسنانه ، وعنقه ، كانما اطلقها ليعبر بحنجرته لا بكلامه عن قرير نفسه ، ورضى قلبه .

كثيرا ما طلبت منه ان يقيم دعوى على الدولة ليطالبها بمعاشين ، فيقول لي : لماذا ؟ فاقول له : «نظرا للمساحة ، وتكاليف «الورشة» التي حققت منك رجلا كلف مقدار اثنين او ثلاثة » .

فيتهانف ضحكا وهو يصيح : قديمة...

فارد عليه قائلا : «الاظفر منك بالتعبير ، والحركة .»

أراني الساعة اتحدث عن الكاتب قبل الكتاب ، ومع هذا فانا لم أخرج عن الموضوع ، فتوما يعقوب خوري ، السرياني ، اللبناني ، القصاص البارع ، كل تام يتالف من شكل ، ومحتوى ، وحركات ، وصلات ، واجواء ، له كتب ، وله احلام ، وهواجس ، ينطلق من تجارب وتاملات ، ويختلس الغريب الشارد فيؤنسه ، ويلمس العجماوات فيؤنسنها ، وهو في هذه الشؤون المعروفة ، وفي سواها التي نجهل ، هين لين ، كالنسمة ، والرفة ، واللمسة الرفيقة من يد على شعر ، ومن اصبع على زهر .

أنا أتحدث عن توما خوري ، فالاطار والصورة شيء واحد ، والوعاء بما فيه تعبير عن محتوى متناغم ، وأنا وهو كانتا من معدن صليب ، وكل شيء مني ومنه ، فلهذا مهما أوغلت في الهوامش فانا في الوقت ذاته موصول بالمتون ، وانك لتعرف قيمة الشخص البشري بمقدار ما تراه لنفسه ، وتراه متداخلا في سواه ، كانما صيغ من مختلف الاشياء .

« حين قرع الجرس» مجموعة قصص قصيرة لتوما خوري ، تشكل الحلقة الثالثة من سلسلة مؤلفاته ، موطئة لحلقات اخرى ستتعانق مع اخواتها ، ثم لتاخذ مكانها في رف من رفوف المكتبة العربية المعاصرة في فن القصة .

«حين قرع الجرس» قصة المجموعة الاولى ، سماها كلها باسمها . فاذا كانت القصة حادثة ، وشخوصا ، وغاية ، وشكلا ، فهل يمكن ان نتبين الخط الذي مشى فيه الاستاذ توما لندل عليه أين يقف بين أبناء صفه من الادباء المعاصرين ؟

الحادثة : في زماننا الحاضر ، نحس حرارة وقوعها كانها في دمنا ، او انها لفترات قليلة نزعت صورها من جفوننا ، وسمعنا ، واحساسنا ، واقعية الى درجة انها مالوفة ، بسيطة ، نلمسها في تلك الزواية من الشارع ، في ذلك البيت المتميز ، وسط الساحة ، في مجرى السابلة ، بين دروب قرية ، وفي حضن مجلس من المجالس ، او ندي من الاندية .

من هنا يبدو لنا كم يعايش المؤلف ظروفه ، حيث يقدها من عصبه ، من مجرى دمه ، ويضع فيها عيونه ، نبض قلبه ، لهاث روحه ، وملامح كيانه كله . نشل ، تحكيم في مسابقة شعرية ، بدلة المناسبات ، كرسي الصديق ، الخواجه ، وساوس أب ، خطف عروس ، هذه بعض حوادث قصص المجموعة .

الشخوص : الزاني المخادع ، نطوح طاطيوس ، جودت دحيدح ، نديم شليطا ، زخيا الشويري شبوع وزوجته كليو ، عائلة طاحوني ، المختار ، المحامي والشحاذة ، برهوم ، سيمون ، عبد العال ، الملك المخلوع ، ابو انور ، سليمان . يسكنون في جلدي وجلدك ، بين جفوننا ، يصدموننا بالمناكب في الشارع ، يزعجوننا في الترامواي ، والبوسطة والسينما ، أو نهش لهم في زاوية او منعطف مسلمين باشارة خاطفة ، متوقفين عن رغبة ، او انهم عاشوا في تلك القرية ، او هنالك في الضاحية ، او الحارة ، او الشارع .

الغاية : لا غاية ، بل كل غاية ، ان كان للفن هدف يرمي اليه سوى اللعب بالصور ، وغزل الخواطر ، واللهو بالخلجات . يحبك من ذلك ملاءة ، قميصا ، سروالا ، منديلا . يلبس ، يعرض ، يمزق ، يلوح في الهواء ، ينقض ، يحيك من جديد .

هل الاستاذ توما يعقوب خوري من اولئك الذين ينسجون القصص للمتعة الفنية في ذاتها ؟ معتبرا ان الفن غايته في نفسه ، وان الوجود سواء لوحظ ام لا ، فهو مستحضر بعفوية في كل عمل فني ؟ وان بعض المفكرين الذين اطلقوا مثل هذه الاراء في فرنسا ، وردد فحواها كثيرون في بقاع الارض مثل بودلير ، وكوزين وسواهما «من ان الفن هو للفن» وجاء بعد ذلك من يقول : «ان الفن هو ابن اللهو ، واللهو حصيلة الفائض من نشاطنا الحيوي» و «كثير من اعمالنا جاء تعبيرا عن دوافع مكبوتة ، راسبة ، لا واعية » و «ليس كل ما نقوم به نتيجة عقلنا المباشر » ؟

او ان الاستاذ توما يعقوب خوري القاطن حي المزرعة ، السرياني اللبناني ، الناظر في دار المعلمين والمعلمات ، المسؤول عن أسرة طويلة عريضة ، المرتبط بصداقات ، والتزامات ، ومسؤوليات ، الناشىء في مكان وزمان ، أرض ، مناخ ، تاريخ ، مصير ، منسول من الماضي ، ينسل في الحاضر ، يتشوق الى ان يلتقي بمبدع السماوات والارض فيرتمي في أحضانه السعيدة ؟ يلتزم ، يهدف ، يراعي المقدمة والنتيجة ؟

لا الحالة الاولى وحدها ، لا الحالة الثانية وحدها ، بل الحالتان الاثنتان معا .

فالاستاذ توما فنان ، وكل فنان معبر ، وكل معبر لاه ، غير ان ذلك الفنان موهوب ، والموهبة بنت مناخين الوراثة والتجربة ، فبالوراثة يلهو ، وبالتجربة يلتزم ، يعاني ، يصادم الكون ، يتامل في المصير او يرتعب منه .

مثلما يمد أي فنان يده الى الواقع ليتناول نماذجه ، والى الطبيعة يستخدم اشياءها صورا ، حروفا ، والى ذاته ينطلق منها بالاشباه والنظائر ، فهو يرتفع عن ذلك الواقع ، وتلك الطبيعة ، فيكمل ، ويجمل ، وربما طار بعيدا على جناحي نسر اسمه الجلال ، في آفاق عرضها المعلوم ، طولها المجهول ، ثم يعود وعلى ريشه عبير من مدى المبدع .

الكل من الاحد ، الكل يعود في الاحد ، وتوما خوري واحد من هؤلاء الذين يشكلون الكل يسرع مشوقا الى الوحدة .

الشكل : تحس من قراءة قصص الاستاذ توما ، من كلماته وحروفه انك تدرج في واقع البشر ، غير بعيد ، بل هنا في لبنان ، بل في بيروت بالذات ، بل في حي المزرعة حيث يقطن الاستاذ «توما» حيث حي الدبش ، حيث يعلن عن فضائل «ابناء حينا» لذلك فعبارته بسيطة، واضحة، مباشرة، لا تكلف، لا زخرف، لا تعقيد، انها لغة الصحافة اليومية ، بل ربما جنح الى العامية، وهبط الى الركة ـ وهذا مقتضى حال ـ اذ هو كاتب واقعي تيموري ، دوستويفسكي ، او محفوظي احيانا ، وشرقاوي قليلا ، وهو مثلما ينسحب على خطوط اشرنا اليها ، كذلك يصطاد الخاطرة الشاردة ، يغزل القماشة الحريرية ، يرونق الخفقة الشعرية ، يغوص في حنايا النفس البشرية ، يكشف ، يعطاد، يفضح ، ينتشر على صنوبر بيروت ، على رؤوس الجبال ، في طول الفضاء وعرضه .

قلنا له : « روتش جملك ، أحكم تعبيرك» فقال لنا : «انا سابح في هذا الوجود ، آخذه كما هو ، ولست من كتاب المقامة ، او الرسائل في ديوان جعفر البرمكي ، أو بلاط هرون الرشيد ، او من مبهرجي «البرسيوزيته» في فرنسا ، انا توما يعقوب خوري من حي المزرعة ببيروت. قلنا ، وقال ، فجرينا معه ، وبقي هو يجذبنا بقده المشيق ، وتحدره الذي لا يني او يتوقف .

اما ونحن امام قماشة (لا تجرد ، ولا تحل) فلنغمز قليلا من قناته ، دعابة، تشويشا، اثارة، لنظفر بالالتفاتة السمحة ، والبسمة الانيسة ، والاجابة الطريفة ، لنبقى سائرين معه ، ويبقى سائرا معنا ، يطرفنا ، يمتعنا ، يبدع فننسى ، ونتسلى ،ونغيب :

ان من ساءه الزمان بشيء   لأحق امريء بان يتسلى

بعد أتكون هنالك غفلات مطبعه ، هنوات لغة ، عثرات انسيابه ، الى شيء من تقصير القماش ، او توسيع الفجوات ، واقتضاب الرعشة ، فينقبض العاشق في ذروة انغماسه المشتاق ؟ فهذه اشياء تقع عليها في صفحات : ١٠٥ ـ ١٧٥ ـ ١٨٩ ـ ٢٠١ ـ فاقصوصة : «الحلم الشاغل» بلا خاتمة متناغمة مع السياق ، ونهاية « كرسي الصديق» مبلبلة ، و «ضربة معلم» تنقصها ضربة المعلم ، وان كانت خاتمتها مثيرة .

أخيرا ، مد يدك نكرع الثمالة دفعة واحدة من خمرة «حين قرع الجرس» و «كعبو أبيض» يا رفيقي القارىء ، فالاستاذ توما خوري كاتب حبره مترع النفرة ، كانما تهدل اوراقه من غصون بيلسان على ضفة غدير ، قلمه مطواع النسق ، كانما صيغ من معدن لا يلمسه صدأ، يصر بالنغمة ، يموج بالحركة، يبدع الصورة ، ويقدم لك في جريه الهانىء القرير ، لمة الذهب ، وبريق البلور ، في نعومة المخمل ، وبساطة الحديث اليومي .

وما دام ضيفا أنيسا على مكتبتنا اللبنانية العربية ، جلب لنا هداياه الاربع الطارق القريب ، عناق الافعى ، المندوب الرياضي ، وهذه الاخيرة ، فتلمظت شفاهنا ، وتحلب ريقنا ، فلنضع يدنا في يده ، لياخذ مجلسه في القاعة ، ولندعه في بيته ، يرسم لنا مواعيد كرمة معروشة تفوح من ظلال غصوننا ، ومن ثريا عنقودها اشواق الخوابي المضمرات ، فنظير ، ويطير معنا في مدى الوهة يحملنا اليها الشوق والحنين .

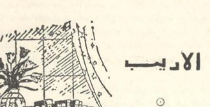
علي شلق

كليوباترة

تاليف ارثر ويجول ـ ترجمة حسني فريز ـ (؟) صفحة ـ مطبعة (؟)

اظن ان الحيرة تتملك الناقد احيانا عندما يريد الكتابة عن كتاب مترجم

الاديب



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ١٢ ليرة لبنانية

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٢٥ ل.ل.

●

في الخارج : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد العادي

٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

في الولايات المتحدة : ١٠ دولارات بالبريد العادي

٢٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية ٢٥ ل.ل. كحد ادنى

في الخارج : ٥٠ ل.ل. او ٢٠ دولارا كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

تليفون : الادارة ٢٢٣٨١٩ المنزل ٢٢٥١٣٩   Tel : Dir : 223819 Dle : 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول

البير اديب

اكثر مما تتملكه عندما يعد نفسه للكتابة عن كتاب مؤلف موضوع . هذا على الاقل ما يحدث معي وما أشعر به . فاذا كـان الكتاب جيدا او كان رديئا ، عاد الفضل او العيب الى مؤلفه. وكل ما نستطيع ان نقول عن المترجم انه أجاد اختيارا لكتاب او لم يوفق في ذلك ، وانه احسن الترجمة او لم يحسنها.الا اذا كان القصد ان يأخذ الناقد على عاتقه أمر عرض الكتاب ونقده مرورا بالمترجم الذي نقله من لغته التي كتب أصلا بها ، الى اللغة الثانيـة .

ولا بد في البدء من كلمة عن الاستاذ حسني فريز مترجم هـذا الكتاب : انه اديب وشاعر اردني مرموق ومعروف ويعتبر في الصـف الاول بين حملة القلم في الاردن.نشر له فيما مضى ديوانان من الشعر «هياكل الحب» و «بلادي» ونشر له من الكتب «قصـص ونقـدات » و «مغامرات تائبة». وفي ميدان الترجمة نشر له كتاب عن حياة طاغور وهذا الكتاب الذي بين ايدينا عن حياة كليوباترة آخر الملكات المصريات من سلالة البطالسة. والكتب الثلاثة الاخيرة ظهرت في العام الفائت وهذا العام ، وهو نشاط جم موفور بالنسبة لاي اديب .

لست اكتم اعجابي بهذا الكتاب الضخم الذي يروي سيرة حيـاة تلك الملكة الشهيرة والظروف القاسية التي مرت بها . بل ان الكتاب لا يكتفي بعرض حياة الملكة ، ولكنه يكاد يروي تاريخ الامبراطوريـة الرومانية خلال عشرين عاما ، منذ ان جاء القائد بومبي الى الشـرق غازيا فاتحا الى ان جاء اغسطس قيصر الى مصر والحقها بامبراطورية روما . في هذا الكتاب نعيش سنوات قيصر الاخيرة ، في مصر وفـي روما ، تلك الحياة الزاخرة العريضة التي انتهت على ايدي المتآمرين من اعدائه الالداء واصدقائه الخياليين . وفي هذا الكتاب نرافق مارك انتوني في حياته المضطربة، في صعوده وهبوطه، في ارتفاعه وسقوطه، حتى ايامه الاخيرة بعد معركة اكتيوم ثم انتحاره عند الشاطىء المصري.

يعرض لنا الكتاب حياة كليوباترة من زاوية جديدة تختلف عـن الصورة التي اعتاد الكتاب والمؤرخون ان يقدموها لنا. انها هنا ملكـة تتحمل مسؤوليات الملك بكل جد واهتمام ، ولا يعني هذا ان كليوباترة عاشت حياتها متبتلة متعففة رصينة ، ولكنها كانت تهدف دائما الـى انقاذ مملكتها الغنية الراقية من شباك المطامع الرومانية عندما كانـت روما في اوج قوتها وسلطانها.من هنا نفهم كيف استجابـت لقيصـر وعاشرته على أمل ان تصبح زوجة شرعية له ، ثم رافقته الى روما من اجل تحقيق هدف أبعد واكبر ، الا وهو ان تصبح ملكة روما مع زوجها قيصر ثم تمهد لابنها قيصرون ان يتولى عرش الامبراطورية بعد ابيـه فتغدو الاسكندرية عاصمة وتحل محل روما . ولكن القدر لم يكن رحيما بها وبآمالها اذ سقط قيصر مضرجا بدمائه في اليوم الذي كانت تؤمل ان يوضع التاج فيه على رأسه الاشيب . وأعقبت ذلك احداث مروعة مضطربة ، وجاء مارك انتوني الى الشرق بعد ان اقتسم الحكم مـع اوكتافيوس ، وعاشت كليوباترة مع انتوني فترة سعيدة هانئة ولكـن انتوني لم يتخذها زوجةشرعية بدوره لانه كان متزوجا باخت اوكتافيوس.

وفي معركة اكتيوم ادركت الملكة ان انتوني لم يكن يتصرف تصرف القائد المحنك الذي يعمل على ان يعقد النصر بلوائه ، ومن هنا ينطلق السبب في انسحابها من المعركة باسطول مصر . انها لم تكن خائنـة لحليفها كما يذهب المؤرخون الاخرون ، ولكنها كانت تتصرف بدافع من شعورها بالمسؤولية نحو مملكتها وشعبها في مصر. كانت قد تحالفت مع انتوني لتحقيق هدف واحد الا وهو نقل مركز الثقل من روما الـى الاسكندرية وتغليب الثقافة اليونانية الراقية على ثقافة الرومان التـي كانت ما تزال في اول الشوط. فلو انتصر انتوني بمحالفتها له ، وهو الامر الذي كانت تسعى لتحقيقه ، لما تردد في الانتقال الى الاسكندرية الى جانب كليوباترة واتخاذها زوجة شرعية له . وقد اتهم كثيرون من الباحثين كليوباترة بانها كانت امرأة شهوانية تلتقط العشاق والخلان كيفما اتفق ثم لا تأبه بمصيرهم بعد ان تمل معاشرتهم ، ولكن مؤلـف الكتاب ينفي هذه التهمة في سياق بحثه ، ويصورها امرأة ذات مطامع واسعة ، ويلتمس العذر لها في ان القوى التي حاربتها كانت تتفـوق عليها بمقدار لا قبل لها بـه.

والكتاب يدل على دراسة واسعة مستفيضة وعلى اناة وطول بال ، ولا بد ان مؤلفه قد استغرق في موضوعه وعاش ايامه ولياليه وعاصر الاحداث التي كتب عنه بخياله وثاقب افكاره ، لانك تلمس فيه الاحاطة والشمول وحسن الفهم وتقليب الآراء وتمحيصها . وهو بعد ذلك كتاب يجمع بين علمية التاريخ وطرافة الرواية وسمو الثقافة ، ولا اشك في ان قارئه يخرج اكثر علما بعد فراغه من قراءته .

بعد هذا لي ملاحظة عامة على الترجمة : لقد وفق الاستاذ فريز في نقل الكتاب الى اللغة العربية بأسلوب لا يبدو عليه اثر من آثـار الضعف.ولكنه مع ذلك كان خليقا ان يعاود النظر في الكتاب قبل ان يدفع به الى المطبعة ، ولو فعل ذلك لتفادى بعض الغموض في بعض العبارات .خذ مثلا على ذلك قوله «فانه من غير ملكة وولد ووريث فانه ليس هناك الا نقطة ضعيفة ...». (صفحة ٩٢) وقوله ايضا « ويمكن ان نرى بسهولة ان كليوباترة قد بينت لقيصر المشابهة بين العيدين وانه هو نفسه ، او أنه فعل شيئا يشبه لوبركوس» . (صفحة ٩٥) ومثـالا ثالثا من صفحة ٢٣٧ «ولقد فكر انطوني وهو في عزلته باخطائه المفترضة، فراح يشك في زوجته ، اما هي فانها لم تعد ترى فيه ندا لها ، ولكن ترى فيه مخلوقا يستحق كراهيتها وازدراءها على انه يثير فيها ، الـى حد ، شفقتها الكريمة». ولو اعاد النظر في الكتاب لما اطلق على الملكة اسم (كليوباترة) على الغلاف واطلق عليها اسم (كليوباترة) من اول الكتاب الى آخره. وتراه قد استعمل كلمة (نباتا) عن بلاد الانبـاط وكلمـة (سيليسيا) بدل كيليكيا وكلمة (جوديا) بدل اليهودية .

وهناك ملاحظة عامة اخرى وهي ان الكتب الثلاثة التي تحمل اسم الاستاذ فريز وقد ظهرت هذا العام والعام الفائت لا تحمل تواريخ طبعها رغم ان اثنين منها نشرا في دار الكاتب العربي ببيروت. وهذا مـن عيوب النشر في بلادنا .وكنت اتمنى ان يتضمن الكتاب كلمة عن المؤلف وعن تاريخ تاليفـه .

على كل حال فانه لجهد كبير خليق بالتقدير والاعجاب .

عمان ـ الاردن **سليمان موسى**

ابراهيم المصري : حياته وادبـه

تاليف فوزي سليمان ـ ٨٤ صفحة ـ مطبعة النصر بالقاهرة

جمع كتاب : «ابراهيم المصري ـ حياته وأدبه» سيرة هذا الرجـل العطرة ، وجهاده في ميداني : الادب والصحافة ، وما انطوت عليه نفسه من حب ودفع لكثير من ادباء هذا الجيل والجيل الذي سبقه ...

فقد أرخ الاستاذ فوزي سليمان ، لحياة هذا الاديب ، تأريخ العالم به ، الخبير بأعماله واتجاهاته ، البصير بنفسه وفكره وثقافته ..

كان ابراهيم المصري الذي نشأ نشأة شعبية في «حي القبيسي» بالقاهرة ، يعيش في ظل والد يعمل نساخا للعقود في المحكمة المختلطة ـ وقتذاك ـ ويهمه ان يتجه ابنه وجهته فيساعده في خريف عمره على قطع حياته ، والمضي باسرته حيث يحب لها الوالد من العيش ، ويرضى من السعادة ، وان كان لم يعلم ان ابنه سيكون له شأن وأي شأن ـ في دنيا الادب ، وعالم البيان ، بفضل انشاد شعر ابي تمام والبحتري ومهيار الديلمي ، امام هذا الولد الذي دفعته ملكته الى التعلق بهـذه الصناعة ، والمضي فيها الى آخر الحياة .

ودون ما شك ، فقد كان لهذا الاندفاع ، وذلك الاتجاه الذي اتجـه اليه ابراهيم في حياته،ان لم يستطع الحصول على مؤهل دراسي ، او

رخصة يترخص بها في سلك الوظائف ، ويأخذ حقه كفيره من اصحابه الذين تربعوا على عرش الوظائف ، واشير اليهم على انهم الطليعة في الحياة ، المسلحون برخصة ، ينام عليها صاحبها ، وتشفع له يوم لا تنفع شفاعة اي مجد ، او تتطاول عليها اعمال واعمال ...

لكن ماذا يصنع ابراهيم ، وقد تعرض لحمل الرسالة ، و « فتح بيت والده » وهو الذي تزود بالثقافة الغربية ، بعد ما تسلح بالعربية، لغة وشعرا ونثرا .. أينزل الى الحياة دون « رخصة » رسمية ، ام يفر من هذا «الروتين» الذي يحتم عليه ان يخضع لذله ، ويصبر على بلــــواه ...

نظلم ابراهيم المصري ، ان نحن آخذناه على فشله في وظائفه المتعددة التي شغلها فهو لم يخلق الا ليكون قائد فكر ، وربان سفينة ، ومعلم جيل ، وقائد نهضة ، يدين جنودها له ، بالقيادة الرشيدة ، ويعترفون له بالحكمة بعد الخلق ...

يعترف المؤلف ، وليس هذا عيبا يؤاخذ به ، او يؤخذ عليه ، بان ابراهيم عندما تمرد على وظيفته وتركها ، آثر ان يسكن « دار الكتب » نهارا ثلاثة اعوام ، يعيش فيها كلا على المرحومين : محمــد تيمور ، واسماعيل مظهر ، وعمر عارف ، وزكريا مهران ، وعبد الخالق ثروت.

لكن كانت معاهدة الوظائف التي وقعها ابراهيم المصري ، ما زالت تطالبه بالوفاء ، وتلح في سداد الديون ، فجذبته ـ كرها ـ مرة اخرى الى ان يعمل مدرسا ، خلفا لشقيقه الذي كان يعمل في هذه المهنة ، وصرعه المرض ، وهوفي ساحتها يؤدي عمله ، وينشىء فتيته ...

غير ان هذا الكاتب ـ العجوز الان ـ لم ينس انه يعمل في هذه الصنعة على جثة أخيه ، ويكسب عيشه ، تعويضا عن الرزء الــذي اصابه ، فثارت نفسه على هذا الوضع ، وانف من هذا الفتات ، فاتاح له المرحوم عبد القادر حمزة ، صاحب «البلاغ» الفرصة ، لينشــر دراساته الادبية ، ويظهر نبوغه ، وسر عبقريته من على هذا «المنبر» الفيــاض ..

ولقد دفع النجاح الذي لقيه ابراهيم المصري في حياته الصحفية ، الى ان يدخل المسرح كاتبا لعدة مسرحيات هي : «الانانية» و «الفريسة» و «نحو النور» بعدما أحدث كتابه : «الادب الحي» هزة عميقة ،وقوبل من الكتاب والنقاد باعجاب شديد ، الى حد ان صحيفــة «الاهرام» أفردت له ـ في حينه ـ مقالا طويلا ، استغرق ثلاثة انهر كاملة .

اما عمله في «البلاغ» فكان متنوعا..كان يكتب صفحة أدبية ، وصفحة نسائية ، وصفحة سينمائية ، ويترجم التلغرافات ، ويعلق على الكتب الجديدة ، غير كثير من الموضوعات الاجتماعية التي توجه وتفيد. وفي خلال فترة اشتغاله بالبلاغ ، اخرج ابراهيم المصري مجلة : «الاسبوع» وجعلها ميدانا مفتوحا للشعراء : ابراهيم ناجي وعلي محمود طـه ، وصالح جودت ، الذين كانوا يريدون ـ وقتذاك ـ استحداث مذاهب جديدة في الشعر العصري ، كما انه لم يكتف بهذا الميدان الفسيح ، فانشأ مجلة اخرى هي : «الادب الحي» ، فكانت ساحــة عريضة ، لمعت فيها اسماء جديدة من امثال : نقولا يوسف ، ومحمــود الشرقاوي ، ومحمد امين حسونة ، وراشد رستم ، ومحمود المنجوري، وكثير غير هؤلاء ممن لعبوا دورا خطيرا في القصة او الدراسة الادبية او الترجمة ، وان كان ابراهيم المصري يشارك هنا وهناك في الحياة الادبية المتألقة والصحافة النظيفة ، فكان هو واحمد خيري سعيــد ، ومحمود طاهر لاشين ، والدكتور حسين فوزي ، وحسني محمــود ، والدكتور احمد زكي ابو شادي ، واسماعيل مظهر ، والدكتور حســن كامل حسين ، وعبدالرحمن البرقوني ، يثبون وثبتهم ويدعون لمدرستهم التي ظهرت في عام ثلاثة وعشرين وتسعمائة بعد الالف ، تجدد فــي كل شيء ، وتخلع كل ميسم تتسم به الحياة في القصة والمسرح والشعر والدراسة الادبية والاجتماعية والتاريخية ، الى درجة الطعان بالقول ، والحراب والتعريض والمناوشة ، عندئذ لم يجد ابراهيم المصري بدا من ان يعمل رئيسا لتحرير «الهلال» ليظهر فيها مدخرات فكره ، وبواعث ثقافته ، ويستطيع الدفاع عن رسالته في قوة وعزم واصرار ، سنوات طويلة ، حتى سقط ذات يوم ـ مغشيا عليه اربع سنوات ، يلازمــه المرض والتعب والاعياء وعقوق الاصدقاء ونكران الجميل ، الــى ان من الله عليه بالشفاء وعــاد الى عملــه وابراز مواهبه ، ولكــن في دار « اخبـار اليــوم » .

ولقد كان الاستاذ فوزي سليمان منصفا كل الانصاف ، عندمـا ناقش الحركة الادبية في مصر حتى عام خمسة وثلاثين وتسعمائة بعــد الالف ، واتسامها بالترجمة وبتعريف القراء برجال الفكر الاوروبي ، ومحاولة انتاج ادب مستقل الطابع والشخصية ، وموقف ابراهيم المصري من كثير من هاتيك الفكر التي دارت في ذلك الحين ، وانسيــاق النزعات ، وتزعزع العزمات ، ومضيها نحو التقهقر امام شتى الاغراءات!

ولكن المؤلف اثبت رأيه في ابراهيم المصري بكلام ابراهيم المصري نفسه ، حيث حمل في كتابه : «صوت الجيل» على النقد والنقاد ، « اذ الادب في عرفه ، لا ينهض الا بالنقد ، ولا يستقيم الا بشخصية الناقد المخلص الامين ، فاذا اضطرب النقد وتشوش واستمال الــى ضرب من تقارض الثناء ، فقد انحط الادب ـ ولا ريب ـ وتدهور ».

وفي فصل آخر من فصول هذا الكتاب يقول ابراهيم المصري :

« وهناك ظاهرة اخرى اشد خطورة مما تقدم على نهضة الفكــر والنقد عندنا ، وهذه الظاهرة تمس اسلوب النقد نفسه ، والطريقــة التي يعالج بها أشباه النقدة ، العمل الادبي المطروح بين ايديهم .. هؤلاء الناس يتناولون الكتاب الجديد في نظرة تعسفية جائرة ، يريدون تطبيق نظرياتهم الخاصة وأفكارهم الخاصة ، ومذاهبهم الادبية الخاصة على صاحبه ، فان وجدوا في الكتاب ما يتلاءم وتلك النظريات والمذاهب امتدحوه واعترفوا به ، والا فالاستهتار والتنقص والتحامل نصيــب مؤلفه المنكود » !!

ثم اثبت رأيه في الصراع بين العلم والدين ، وعلاجاته الاكسيرية « لطاغور » و « تولستوي » و « شكسبير » و « بودليــر » و « زولا » و « مارسيل بروست » و «رومان رولان » و « اندريه جيد » وغيرهم من أعلام الادب في الغرب ، وفن القصص في مصر ، ووجوب اتجاهه وجهة مصرية وانسانية في وقت واحد ، والادب المصــري المنشــود بصفــة عامــة .

كذلك استفاض ابراهيم المصري في عرض نظرياته التجديدية فـي كتابه : « وحي العصر » فتناول دراسة «وعي البيئة والعصر » وضرورة تمثله في الادب الحديث ، كما نبه الى روح الصدق في الادب والحياة وضرورة توافرها في شخصية الاديب وعمله ومذهب الادب الشعبي ، واتجاهاته وخصائصه وما يميزه عن الادب البرجوازي .

ومما يزيد من امتاع هذه الدراسة ، ان المؤلف قد حلل ابراهيم المصري مسرحيا ، ووقف عند كل عمل له مناقشا ومحللا ومدققا ، كذلك اتى على رأيه في الدراسات النسوية التي استجاب لها ابراهيم المصري طواعية ، ونزولا على رغبة الصحافة ، وامتثالا لما تتطلبه مـن النفاذ الى اعماق الجماهير ، ومقتضيات المهنة .. لكن هل كان ابراهيم المصري مستجيبا لدواعي الثرثرة ، ام متبلورا في هذا الانسياق ؟

الواقع ، ان هذا الكاتب لم يستجب هذه الاستجابة ، ولم يدخل معترك هذا الميدان الا عن ايمان بما يكتب ، او اصلاح لكثير مما علـق بالاذهان ، او ران على الافئدة ، نتيجة لتسرب كثير مــن النظريات الغربية الآفنة المفرضة التي تسيطر على كثير من العقول ، وتمســك بعديد من الاقلام .فهو في تحليله الرفيع يتناول الدور الذي لعبته المرأة في حياة فريق من العظماء ، والمشكلات الاجتماعية والنفسية والبيئية التي تعترض حياتنا كل يوم ، والاساليب التي يمكن ان تقرب مسافــة الخلف بين الرجل والمرأة ...

وقد كان جميلا من الاستاذ فوزي سليمان ، ان يقف امام آثــار

ابراهيم المصري عارضا لها ، ومهللا لمضامينها ، وسابرا لاغوارها بعد ما ذكر القوى الرئيسية التي تقف عليها هذه الاثار ... اجتمعت هذه القوى ، وهي : الخيال المتقد ، والخبرة العميقة بالحياة ، والثقافة الواسعة ، والاسلوب الخاص في هذه المجموعات القصصية : «الانسان والقدر » و «صور من الانسان» و «الانثى الخالدة » و «كأس الحياة » و « وثبة الاسلام » و « صراع الروح والجسد » و « الباب الذهبي » و « عالم الغرائز والاحلام » وغيرها مما دبج ابراهيم المصري او حاول ان ينتزعه من صميم الحياة في حالات اضطرابها وتوزعها وصراعها العنيف بين ارادتها ومشتهياتها ..

وهناك قصص تاريخي وآخر رمزي فلسفي ، عالجه ابراهيم المصري بخيال الشاعر وعقل المحلل ، وبصيرة الفنان كقصة : « عندما تتحير الروح » و« خبز الكراهية » و « شهداء النور » و « نافخ الزمار » و « طريق الصفصاف » و « صور من الانسان » و « المطاردة » و « العودة » و «الينبوع » .

وليس شك في ان فن ابراهيم لا يصدر عن الفكر المجرد ، ولا عن فلسفات جاهزة ، مهيأة في الذهن من قبل ، ولا عن نظريات يحاول ادماجها او اثباتها في قصصه ، بل يصدر عن ملاحظة مباشرة للحياة ، واحساس صادق بها ، وتصور مشبوب لاحداثها واطوارها ...

على ان اهم ما يلاحظ على هذا الكتاب ، ويصمه بوصمة لا تمحى ابد الدهر ، الا اذا اعيدت طبعته واستغنى عن ما فيه من هذا الثبت من الآراء التي حاول الاستاذ فوزي سليمان ان يستعين بها ويثبتهاخاتمة لهذه الدراسة المتعة ، فليس ابراهيم المصري بحاجة الى الاشادة به او الحكم عليه بعد هذه السنين الطويلة التي قطعها معلما ومرشدا ورائدا .. ومهما كان القلم الذي يحيق بأي كاتب ، فلا يمكن ان يطل على ساحة بطل ، متعدد المواهب ، متنوع الملكات ، لا يتجه ذهنه في طريق واحد ، بل يقتحم شتى الطرق والميادين .. ومهما قيل في أديب العربية ابراهيم المصري ، فلن يقال الا انه فنان مثالي النزعة ، نزيه القصد ، قوي الخلق ، شق طريقه بمفرده ، عاش ويعيش لفنه ، لم يجتذبه اغراء المال، ولم يستخفه السعي وراء الشهرة ، ومع ذلك فهو في مكان الصدارة ، وعنوان الصفوة البارزة من رجال الفكر والادب في الشرق العربي كله ...

القاهرة — ابو طالب زيان

•

آراء في العربية

تاليف عامر رشيد السامرائي — ١٥٨ صفحة — مكتبة النهضة ببغداد — مطبعة (؟)

ما تزال اللغة العربية تواجه في كل مرحلة من مراحل حياتنا الفكرية العربية معارك متعددة ، شأنها شأن كل مقومات فكرنا : (التاريخ والتراث والدين .) غير ان «اللغة العربية» اليوم تواجه ضغطا متزايدا له بواعث متعددة قد تتصل بالبواعث التي حملها خصومها منذ اوائل عصر النهضة ، وقد تنفصل عنها ، فما يزال الفكر العربي في مواجهته للفكر الانساني يثبت انه قادر على الامتصاص والاقتباس ، مفتوح النوافذ والابواب للثقافات والعلوم والمعارف ، وما زال ايضا قادرا على ان يأخذ ويدع ، دون ان تفرض عليه التيارات الفكرية المختلفة لونا معينا ، او تطويه تحت طابع معين غير طابعه الاساسي ، ومن هنا فان المعركة قائمة ومستمرة ، وهي معركة البقاء والتطور من ناحية ومعركة التغريب ومحاولة تغيير مفاهيم القيم التي تفرضها القوى الخارجية من ناحية اخرى . وسيظل هؤلاء يدفعون بارائهم ثم يجدون من ابناء الامة العربية من يواجه هذه الاراء ويفندها ويصححها .

وذلك موقف الكاتب العربي النابه الاستاذ عامر رشيد السامرائي في كتابه « اراء في العربية» وما زلت أذكر ذلك الثبت الطويل من الكتاب الذين عالجوا هذه القضية ، وعايشوها ، منذ اوائل هذا القرن ، ولقد كان مما يشرفني ان كنت واحدا منهم ، حين اخرجت كتابي «اللغة العربية بين حماتها وخصومها» منذ خمس سنوات وان لم يقرأه السامرائي .

ولذلك فقد كنت شغوفا بان اظل على الطريق ارى كل جديد في هذا المجال .ولقد كان من الطبيعي ان يصدر في العراق الغيور على الفصحى مثل هذا الكتاب من كاتب قومي طامح ، يلمع اسمه اليوم في مجال الصحافة والادب والفكر ، ويشرف على مجلة «الاقلام» كبرى المجلات الادبية في بغداد .وقد عهدنا ان نجد من العراق دائما ذلك الصوت القوي الرصين في مجال مقوماتنا الاساسية ايمانا باللغة العربية والامة العربية والفكر العربي الاسلامي.وما تزال اسماء هلال ناجي وعبدالخالق فريد وعبدالله الجبوري ويوسف عزالدين وغيرهم تملأ الافق .

ومهما يكن من رأي المؤلف في مقدمة كتابه ، من ان ما كتب عن اللغة العربية يفوق العد والحصر ، من دراسات تناولت قضايا (اللغة العربية) من جميع وجوهها ، فاننا نود دائما ان نرى كتابنا وهم يتناولون هذه الابحاث من جديد ، ويدلون فيها بالرأي الجديد ، فان ذلك من شانه ان يكذب قول القائلين بأن الشباب الجديد ينساق مع اراء التغريب ، او انه غير قادر على خوض هذه المباحث .

ولقد اشار الاستاذ السامرائي الى انه هدف من وضع هذا الكتاب الى خدمة اللغة العربية بابراز بعض الحقائق العلمية بعد ان عرض للاراء التي يثيرها الناقمون عليها ، وانه قصد الى ازالة الكثير من الاوهام التي رسخت في بعض الاذهان كحقائق لا تقبل النقاش وهذا القول من شانه ان يؤكد ان تيار المؤمنين باللغة العربية الفصحى ما زال قويا وناميا وممتدا، وان الدعوة الى احلال العامية محل الفصحى، مهما امتد بها الزمن فانها لا تجد الا صدى ضئيلا عند ذوي القدر المحدود من الطالعة — ولا اقول الثقافة — وان الفصحى تقوى وتتدعم وتوسع نطاقها ونفوذها لتشمل الامة العربية كلها في ظل اتساع نطاق التعليم ، وليست العامية هي التي تسود على العربية ، وتفرض سلطانها على اسلوب الكتابة .

واذا كان قد شاقني في هذه الدراسة فصل بذاته ، فانه فصل (اللهجة العامية) الذي صدره كاتبه بكلمة جاك بيرك : « لقد خاضت الثقافة العربية معركة العصور وخرجت منها ظافرة بفضل اللغة العربية الفصحى » .

وقد عرض الاستاذ السامرائي للاراء الداعية الى اتخاذ العامية لغة ثم رد عليها ، فأشار الى ان اللهجات العامية تشوه ولا تخلق ، فهي تأخذ الفاظها من الفصحى او من لغات اجنبية اخرى فتشوهها بابدال حروفها وان اللهجات بهذه الصورة لا تصلح للكتابة ، اذ مما لا شك فيه ان صعوبات جمة تقوم في وجه من يريد الكتابة بالعامية وتتضخم الصعوبات امام من يريد تعلمها اذ ليس من قاعدة رئيسية هناك تتبع عند الكتابة . بل هو اللفظ وحده الذي يحدد صورة الحرف فاذا علمنا ان هناك لهجات متعددة نستطيع القول بان صورة الحروف سوف تتعدد ايضا .

هذا فضلا عن ان اللهجات العامية تتميز بكثرة الالفاظ الاجنبية الدخيلة عليها ، اذ تجد فيها خليطا عجيبا من الالفاظ . وهذا الامر وان كان يدل على شيء عند اولئك المغرمين باللهجات العامية ، الا اننا نرى فيه دليل خمول ينتاب الامة وضمورا في تقدمها ورقيها .

ويمضي المؤلف فيقول : ان اللهجة العامية لا تستطيع التعبير الا عن المعاني الساذجة العامية المتعارفة وهي ان ارادت التعبير عن المعاني

السامية اعتمدت على اللغة الفصحى ، وان اللهجات العامية خالية من قواعد الكتابة ، وان الاعتماد عليها واعتبارها وسيلة للتفاهم يعني ان هذه اللهجة التي تتكلمها هي عرضة للتبدل بتاثير عوامل مختلفة .وانها ستبقى في تبدل مستمر ، وبذلك سنضيع الكثير من تراث البشرية وضياع ذلك التراث يعني توقف الحضارة التي هي عبارة عن حلقات متصلة ببعضها .

ومضى الاستاذ السامرائي في كشف نظريته فقال : ان في الوطن العربي لهجات عامية كثيرة ، ففي العراق لهجة لا يتكلمها اهل الحجاز او لبنان مثلا ، وفي المغرب لهجة لا يتكلمها العرب في الكويت او الاردن او سوريا ، فاي لهجة ندعو اليها ، انتخذ اللهجة العراقية (لغة) لنا من دون اللهجات الاخرى ، ومن لنا باقناع الفرد في لبنان عن لهجته الخ .ثم ان اللهجات العامية متعددة حتى في القطر الواحد، ففي العراق مثلا تختلف لهجة اهل الموصل عن لهجة اهل البصرة ، فكيف لنا ان نوفق بين تلك المتناقضات .

وخلص الكاتب الى ان اللهجة العامية وليدة الجهل ، فنحن لو تدبرنا ميزات تلك اللهجة واسباب ظهورها ، لما وجدنا ما يشير الى انها حصيلة التمدن والحضارة ، بل انها مصاحبة للتاخر والانحطاط وليس في التاريخ ، اي تاريخ ، ما يدل على ان لهجة ما قد ولدت بفعل تقدم حضاري .

وهكذا يمضي رشيد في كشف وجهة نظره عارضا لكل اراء خصوم الفصحى امثال الدكتور انيس فريحة وسعيد عقل وغيرهما مفندا لها على نحو علمي متزن .

وبذلك ياخذ كتاب « اراء في العربية » مكانا طيبا الى جوار عديد من الكتب المنهجية في هذا الموضوع .

وبعد فان الاستاذ السامرائي قد قدم للمكتبة العربية عددا من الدراسات في مجال البحث العلمي العربي ، وهناك كتابه «مباحث في الادب الشعبي» متصديا بالذات للشعر الشعبي العراقي الذي لم يظفر بدراسة جدية عميقة قبل ان يؤلف كتابه ، ولا يعني هذا اي تناقض في اهتمام المؤلف باللغة العربية واهتمامه بالادب الشعبي ، فان القضايا دائما تنظر من وجهة نظر مفهوم المؤلف واتجاهه .فالسامرائي الكاتب العربي الصادق الايمان باللغة العربية والامة العربية ومقوماتها وقيمها اذا تناول الادب الشعبي فان تناوله له يختلف اختلافا واضحا عن تناول كاتب اخر ، ترتبط مفاهيمه بما يتخذه التغريب من (الفلكلور) سلاحا لمقاومة القيم العربية الاسلامية الاساسية . ومن هنا فاننا نثق بالباحث اولا ، قبل ان نتصدى لمباحثه ، فاذا كان مؤمنا بفكر الامة العربية ايمانا اصيلا ، فانه حين يتناول اي موضوع من الموضوعات التي ادخل عليها التغريب مفاهيمه كالفلكلور او الشعر الحر او العامية ، فاننا نثق بانه سيصدر عن مفاهيمه وقيمه الاساسية، وانه لن ينحرف وراء تيارات التغريب او تحديات الاستعمار في مجال الفكر .

وقد مارس السامرائي الكتابة منذ تخرجه من كلية الاداب في بغداد ١٩٥٣ في الصحف العراقية واشرف على الصفحة الادبية في جريدة الحرية ، وقد نشر خلال هذه الفترة عددا من الدراسات النقدية لبعض شعراء وادباء العراق كالجواهري وعاتكة الخزرجي ، وهلال ناجي ، وخالد الشواف ، وعبدالله نيازي وجلال الحنفي ، هذه الدراسات التي اسماها مؤلفها المعاول ، ستمثل حين تصدر جانبا جديدا من جوانب حياته الادبية والفكرية المتنوعة.

القاهرة **انور الجندي**

•

بناء الروايـة

تاليف : ادوين موير ــ ترجمة : ابراهيم الصيرفي ــ ١٥٢ صفحة ــ منشورات الدار المصرية للتاليف والترجمة ــ مطبعة دار الثقافة العربية للطباعة بالقاهرة

جد ضئيلة في المكتبة العربية هذه الدراسات التي تتناول القصة من الناحية النظرية. واكثر هذه البحوث مترجمة رغم مرور اكثر من نصف قرن على ظهور القصة العربية.واحدث هذه الدراسات المعربة ما كتبه ادوين موير ونقله ابراهيم الصيرفي هذا الشاب المنصوري الصلب المكافح .. وغرض هذا البحث كما يدل عليه عنوانه وكما يقول صاحبه، دراسة الاسس التي يقوم عليها بناء الرواية غير مقتصر على نوع واحد بل على انواع عدة ، مكتشفا قوانينها ومحللا هذه القوانين ومبرراتها الجمالية ايضا ..

ويسطر موير بحثه وفي خياله محاولات دارسين سابقين مثل برسي لبوك في (صنعة الرواية) و أ.م. فورستر صاحب (جوانب الرواية) وجون كارونر في (شهرزاد او مستقبل الرواية الانجليزية) ، والاختلافات الجوهرية بينهم . ويفضل المؤلف لبوك لانه لا ينسى الرواية طيلة دراسته للرواية بعكس الاخرين . ويكرر موير منذ البداية، النصيحة التقليدية التي تحذر من يظن ان القواعد الفنية نصوصا مقدسة . ويقول ان الرواية العظيمة دائما على تقاليد اعظم من مؤلفها ، كما يعجبه المعنى المتفق الذي اقتبسه فورستر عن نيتشه وهو ..زائف كل ما بعد قبلا. ويتخذ مؤلفنا موقفا جديرا بالاعجاب وهو يعرض لالوان الرواية المختلفة ، اذ لا يجعل مزاجه الشخصي حكما عليها فيقسمها الى جيد ورديء مثل لبوك .بل يبدأ بافتراض ان الاشكال الرئيسية للروايات جيدة كلها ، وحجته في ذلك ان الدخول في الجدل الكثير القائم حولها يفسد الرؤية الدقيقة في النظر الموضوعي .

ويجد موير ان اغلب المصطلحات التي تتعلق بالرواية لم يحدد بعد معناها تحديدا دقيقا ، ولكنه رغم ذلك يعرض موقفه ازاءها بقوله : «سنقبل هذه المصطلحات في شيء من التجوز ، لاننا لا نؤمن بحق ان للرواية «نموذجا» كالسعادة او «ايقاعا» كاللحن ! ويتناول موير «الحبكة» ــ ويعني بها صدق سير الاحداث ــ بادئا بروايات ما قبل الحبكة مثل القصة المثيرة ذات الاحداث الخارقة للعادة (سيرة الدكتور فاوست الشهيرة) ــ التي استوحاها جيته في روايته العالمية ــ ثم ينتقل من هذا اللون الروائي الذي تتابع فيه الاحداث المثيرة فقط ، الى احلال الحدث الواحد المركب مكانها وتطويره ، فيما يطلق عليه

« رواية الحدث » ويفسر المؤلف عمل كل من الشخصية والحدث في هذا اللون الاخير .. «فالحدث يستحوذ على اهتمامنا بتعقده وحله . وهو ما يمتعنا ما دام قد استحوذ على اهتمامنا ، غير انه لما كانت الشخصيات لا ترسم بدقة فان الاحداث تدفع الشخصيات الى أعمال تساعد على تعقد الحدث . ولكن الحدث هو العنصر الرئيسي ،واستجابة الشخصيات له شيء عرضي ، من طبيعته دائما ان يخدم الحبكة . وتكون طبيعة الشخصيات وقدراتها بوجه عام بالمقدار الذي يتطلبه الحدث » (ص ١٥ ـ ١٦) .

وفي مقابل « رواية الحدث » يضع المؤلف «رواية الشخصية» ، ويحدد الاختلاف بينهما ، مشيرا الى ان الثانية اهم اقسام القصص النثري . ويقول الباحث عن مهمة كاتب رواية الشخصية ، انها تكاد تشبه مهمة معلم الرقص اكثر مما تشبه عمل الكاتب المسرحي . فعليه ان يدفع شخصياته الى الحركة الدائمة اكثر من دفعها الى صنع الاحداث ، ولهذا كانت الحبكة هنا مرنة وسهلة . وفي هذا الموضع يتناول المؤلف روايات البيكاريسك ـ اشتهرت منذ القرن الثامن عشر ـ والتي تعنى بالشخوص الخارجة على قانون المجتمع مثل اللصوص وقطاع الطرق والمحتالين ، كنموذج لرواية الشخصية . واذا كان غرض رواية البيكاريسك كما يقول موير ، ان تأخذ شخصية رئيسية داخل سلسلة متتابعة من المناظر ، وان تقدم عددا كبيرا من الشخصيات ، ثم تبني عن طريق ذلك صورة للمجتمع ، فالرواية المعاصرة تفعل ذلك ايضا .. وينتقل المؤلف بين سكوت وديكنز وفيلدنج وغيرهم ، مقارنا بين انتاجهم في الحبكة والشخصية والحدث.ومن اجمل لمسات موير في فصله الاول هذا ، تناوله للشخصيات المسطحة التي لا تبدي على الدوام الا جانبا واحدا للقارىء . ويقول المؤلف ان وجود مثل هذه الشخصيات بتعدادها الكبير ، يدعوه الى الاعتقاد بأن « سطحيتها » تخضع لمنهج اكثر من كونها اخطاء وقع فيهاكبار الروائيين من كتاب رواية الشخصية! وينتهي موير الى ان مثل هذه الشخصيات المسطحة ـ التي ربما ستلقى اعجابا في الاجيال التالية ! ـ هي وحدها القادرة على الوفاء بفرض كاتب رواية الشخصية وانها الاداة الضرورية للتعبير عن نوع واحد من رؤية الحياة !

ويتناول الفصل الثاني (الرواية الدرامية) ، وهي المرحلة التي بلغها الفن الروائي المكتمل . اذ اختفت الهوة بين الشخصيات والحبكة والتحمتا معا .والرواية الدرامية في اعلى مستوياتها كما يقول موير ، ذات صلة بالتراجيديا الشعرية ، تماما كما تتصل رواية الشخصية بالكوميديا . ويرى المؤلف ان التوتر عنصر اساسي في هذا النوع من الروايات ، كما يعرضه مثلا عند جين اوستين مقارنا بين هاردي وبين فيلدنج .والحبكة هنا تتمثل في اعتمادها الداخلي الصارم على قانون السببية . ويجد صاحب (بناء الرواية) ان التماثل بين الحدث والشخصيات في الرواية الدرامية جوهري الى حد كبير . وينتهي باحثنا الى ان السير التلقائي المنطقي هو الطابع الحقيقي المميز للحبكة في الرواية الدرامية ، او بلفظ آخر ، ان الحرية والضرورة هما القدران المتساويان في هذه الحبكة . ويعكس موير هذين العنصرين في اكثر من عمل روائي مثل (جين اير) لشارلوت برونتيه و (مرتفعات وذرنج) لاميلي برونتيه و (الوافدون الجدد) لثاكري الخ.. ويعرض المؤلف للنهاية في الرواية الدرامية ، فهي ليست مجرد ختام لاحداث القصة بل هي التنوير النهائي .

وفي الفصل الثالث الذي جعل ادوين موير عنوانه « الزمان والمكان » ، يقدم الينا المؤلف نظريته في علاقة كل من الرواية الدرامية والشخصية بالزمان والمكان ، بهذه الكلمات .. ان العالم الخيالي للرواية الدرامية يقع في (الزمان) :، وان العالم الخيالي لرواية الشخصية يقع في (المكان) . ففي الاولى ، باختصار ، يقدم لنا الكاتب تحديدا عابرا للمكان ويبني حدثه في نطاق (الزمان) ، وفي الثانية يفترض الزمان فيكون الحدث اطارا زمنيا ثابتا ، يوزع دائما ويعدل مرة بعد اخرى في نطاق (المكان) . فالثبات والخط الدائري في حبكة رواية الشخصية هما اللذان يكسبان الاجزاء تناسبها ومعناها ، اما في الرواية الدرامية فتسلسل الحدث وحله هما اللذان يصنعان ذلك . وقيم رواية الشخصية اجتماعية ، اما قيم الرواية الدرامية ففردية او عامة حسب تقديرنا . فنحن في النوع الاول نرى شخصيات تعيش في مجتمع ، وفي النوع الثاني نرى افرادا يتحركون من بداية الى نهاية . وكلا هذين النموذجين من الرواية لا يتعارضان ولا يتمم احدهما الاخر ، بل هما طريقان متميزان في رؤية الحياة ، الفرد في الزمان، والمجتمع في المكان .» (ص ٦٢) . ويعترف المؤلف بان نظريته تبدو محفوفة بالصعاب ، فمثل هذا التحديد الصارم لا وجود له في الواقع. وانما هو لا يعنى اكثر من اتصاله بالعنصر الغالب في الرواية . وفي مسار هذه النظرية يحلل .. المشهد ، والاحساس بالزمن ، وسمة الشخصية ، سواء بالنسبة الى رواية الشخصية او الدرامية .

وفي الفصل الرابع الذي افرده المؤلف للرواية التسجيلية ، يعرض اولا للعنصرين اللذين يعتمد عليهما العمل الفني وهما : العام والخاص . ويفسر موير ذلك .. فالفنان يمضي في وصف الخاص والخاص وحده ، اما العام فلا ينقل نقلا مباشرا عاجلا ، انه يولد مع الخاص ، اما كيف يحدث ذلك فأمر لا ندريه كما يقول . ويحاول صاحب (بناء الرواية) ان يعرف ماذا يعني بالعام والابعاد التي يتحقق وجودها في الفنون المختلفة ـ مثل هذه المقاربة يجريها المؤلف لمزيد من توضيح الرؤية ـ كالنحت والرسم والموسيقى والاختلاف بينها وبين الادب والرواية . وحينما يدرس المؤلف غلبة الزمان او المكان في احساس المتلقى ، يفرق بين ذلك وبين مثيلها في الواقع اليومي . وينتقل الدارس بعد ذلك الى لون اخر من الروايات ، يصفه بانه اقل أهمية من القسمين السابقين ، ورغم ذلك يتضمن رواية تعد اروع ما كتب من روايات وهي (الحرب والسلام) لتولستوي ، حيث يتساوى الزمان والمكان .. هذه الرواية التي تعد اصدق النماذج واكبرها لما يمكن ان يسمى بالرواية التسجيلية ، التي تتناول دورة الحياة او العملية الممتدة من الميلاد والنمو والموت .

وفي الفصل الخامس يتناول المؤلف لونا اخر من الروايات هو « رواية الحقبة » ، يصفه بأنه لا يرسم صورة لمجتمع يصلح لكل زمان. فحسبه مجتمع في رحلة انتقال معينة . ويعرض موير لهذا النوع من الروايات في انتاج اصحاب (ثلاثية كليها نجر ، تاريخ اسرة فورسايت مكيافيلي الجديد ، تسجيلات دريزر للحياة الامريكية ، وغيرها ..) . ويقارن بينه وبين غيره من الروايات ، واصفا اياه بانه نوع زائف من التاريخ يقتحم عالم الرواية ! وفي هذ الفصل ايضا ، يعرض المؤلف لنمط جديد في الفن الروائي ، وهو الذي يمثله اصدق تمثيل (البحث عن الزمن الضائع ، يولبسيز) .

وينهي ادوين موير بحثه بفصل سادس . يعود فيه مرة اخرى الى الشخصية المسطحة ، ويعرض اختلافها واتفاقها عن النمطية او الكاريكاتورية.ويتفق مع فورستر فيما ذهب اليه من ان الشخصية اذا لم تفاجئنا قط بما تحمل من اقناع ، فهي شخصية مسطحة .. ويذكر ديكنز وشخصياته المسطحة رغم ما تحمل من الاحساس الرائع بالعمق الانساني .

وبعد ، فقد قدم ابراهيم الصيرفي الى القارىء العربي ، ترجمة جيدة لكتاب جيد . رغم هنات قليلة من عدم التفات الى تقديم المؤلف والتعريف به وخاصة وموير صاحب اسلوب فلسفي عميق متهكم ، غامض في بعض الاحيان ! او استشعار حاجة النص واشاراته الكثيرة للانتاج الغربي الذي يكاد يجهل اغلبه المتلقي العربي ، الى متابعة تفسيره ..

المنصورة ـ ج٠ع٠م — علاء الدين وحيد



● مناقشات مع الدكتور مصطفى جواد : بحوث علمية في ابواب متنوعة من علوم اللغة العربية . وشرح مفصل لاملاء السيوطي ـ تاليف رؤوف جمال الدين ـ ١٧٢ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة النجف بالنجف الاشرف بالعراق .

● المحمومون : درس تحليلي لازمة الجيل العربي ازاء مشكلاته النفسية والعاطفية والحضارية ـ رواية ـ تاليف محمد الراشد ـ ٣٢٠ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة الوطن العربي بحلب .

● مقالة في العقل والنفس والروح ـ تاليف ندره اليازجي ـ ١٢٢ صفحة ـ منشورات دار اليقظة العربية للتاليف والترجمة (؟) ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● البيت في حياة العرب ـ تاليف المحامي عبد القادر عياش عضو لجنة الفنون الشعبية في المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب بدمشق ـ ٩٨ صفحة ـ حجم كبير ـ الكتاب ١٢ من سلسلة تحقيقات فولكلورية من وادي الفرات ـ طبع في دير الزور بسورية (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الاتحاد السوفياتي بلا « رتوش » ـ تاليف فريد ابو شهلا ـ ١٣٦ صفحة ـ مطابع مؤسسة الجمهور للطباعة والنشر ببيروت .

● جمال الدين القاسمي وعصره ـ تاليف ظافر القاسمي ـ ٧٠٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات مكتبة اطلس ـ المطبعة الهاشمية بدمشق .

● الفلسفة اليونانية في عصورها الاولى : بحث في الاصول الدينية للفلسفة اليونانية في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ـ تاليف الدكتور كريم متي مدرس الفلسفة في كلية الاداب بجامعة بغداد ـ ١٤٨ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة الارشاد ببغداد .

● الشراع والعاصفة ـ رواية ـ تاليف حنا مينه ـ تقديم سعيد حورانية ـ ٣٩٢ صفحة ـ منشورات مكتبة ريمون الجديدة ببيروت ـ مطابع ارشام ببيروت .

● الشذرات : مقالات ومحاضرات في الادب والعلم والفلسفة ـ تاليف الامير مصطفى الشهابي رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ـ ٣٢٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الكتاب الجديد ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الناس والحب ـ مجموعة قصص ـ تاليف ابو المعاطي ابو النجا ـ ١٤٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الاداب ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● زورق من دم ـ مجموعة قصص ـ تاليف يوسف شرورو ـ ١٤٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الاداب ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● تجديد رسالة الغفران ـ خليل الهنداوي ـ ١٥٢ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الاداب ببيروت ـ مطابع دار لبنان ببيروت .

● سارتر : عاصفة على العصر ـ تلخيص وترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد ـ ٢٨٨ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الاداب ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● مدام بوفاري ـ تاليف غوستاف فلوبير ـ ترجمة الدكتور محمد مندور ـ ٤٨٠ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار الاداب ببيروت ـ مطابع دار العلم للملايين ببيروت .

● حتى يعود شعبنا ـ شعر ـ هارون هاشم رشيد ـ ١٢٨ صفحة ـ منشورات دار الاداب ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● ماساة الحلاج ـ مسرحية شعرية ـ تاليف صلاح عبد الصبور ـ ٢٠٨ صفحة ـ منشورات دار الاداب ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة)

● الذي ياتي ولا ياتي ـ شعر ـ عبد الوهاب البياتي ـ الغلاف والرسوم بريشة آدم حنين ـ ٩٦ صفحة ـ منشورات دار الاداب ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● ديوان ابراهيم ـ شعر ـ ابراهيم عبد الفتاح طوقان ـ الطبعة الثانية ـ ٢٨٨ صفحة ـ منشورات دار الاداب ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الاشجار تموت واقفة ـ شعر ـ معين بسيسو ـ الغلاف بريشة لور غريب ـ ١١٢ صفحة ـ منشورات دار الاداب ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● الملكية الميتة ـ دراما في ثلاثة فصول ـ تاليف هنري دو مونترلان ـ ترجمة الدكتور رفيق الصبان ـ ١٤٤ صفحة ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطابع منشورات عويدات ببيروت .

● المرايا الدائرة ـ شعر ـ رواد طربيه ـ ١٢٨ صفحة ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطابع منشورات عويدات ببيروت .

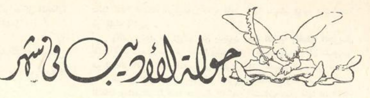
● الجلد الضيق ـ قصص ـ تاليف اندريه شديد ـ مع مقدمة من المؤلفة خاصة بالطبعة العربية ـ ترجمة نعيم بوطانوس ـ تقديم رواد طربيه ـ ١٥٢ صفحة ـ منشورات عويدات ـ مطابع منشورات عويدات بيروت .

● اثر المعدة في الادب العربي ـ تاليف بهيج شعبان ـ ٢٧٢ صفحة ـ منشورات عويدات ببيروت ـ مطابع منشورات عويدات ببيروت .

● مقدمة لدراسة فقه اللغة ـ تاليف الدكتور محمد احمد ابو الفرج دكتوراه في علم اللغة العام من جامعة لندن ـ ١٤٤ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات دار النهضة العربية ببيروت ـ مطابع النقري ببيروت

● الالمانية من غير معلم ـ اسهل طريقة لتعليم اللغة الالمانية في اقصر وقت ـ لم يذكر اسم المؤلف ـ تمهيد للدكتور عمر فروخ ـ الطبعة الثانية ـ ٢٠٧ صفحة ـ منشورات دار العلم للملايين ببيروت ـ (لم يذكر اسم المطبعة) .

● التركية من غير معلم ـ طريقة سهلة لتعليم اللغة التركية في اقصر وقت ـ لم يذكر اسم المؤلف ـ ٢٠٨ صفحة ـ منشورات دار العلم للملايين ببيروت ـ مطابع دار العلم للملايين ببيروت .



جلسة أدب في بيت وديع فلسطين

لاول مرة ـ بعد ان انقضى عهد الجلسات الادبية التي كانت تعمر بهـا القاهرة ، وتعج بها نوادي العاصمة ، يستن الاستاذ الكبير وديـع فلسطين سنة حميدة في استقبال الاستاذ الجليل فؤاد الريس والسيدة عقيلته ، عند حضوره الى القاهرة ، للتعرف على الادباء ، والتحدث اليهم عن كثب بعد ما طال عهد معرفته بهم ، قراءة في مجلات الادب ، واطلاعا في كثير من الكتب .

كان الاستاذ وديع فلسطين ، حريصا كل الحرص ، على ان يلتقي هؤلاء الادباء بزميلهم والمشرف على مجلة «قافلة الزيت» وان يكون هذا اللقاء في بيته وتحت رعايته وعلى مائدته التي عمرت بشتى الاطايب ، وانـواع المفريـات .

ولقد ذكرتني هذه الجلسة الممتعة التي دار فيها نقاش أصيـل ، واستعراض لوجهات النظر حول كثير من نظريات الادب ، وجليل من قضايا الفكر ، بتلك الجلسات التي كان يعقدها الشاعر الفحل السيد حسن القاياتي في داره بالسكرية ، ويختلف اليها الادباء كل ليلة ، دون ما كلفة او ازورار ، كذلك كانت سنة المرحوم الاستاذ العقاد فـي اللقاء كل جمعة في بيته ، وأيضا كان يفعل الدكتور طـه حسيـن ، وان كان يختلف مجلسه عن هذه المجالس ، مظهـرا وارستقراطيـة وحجيجا واتجاها ...

والواقع ان القاهرة ، كلها ، كانت تعمر بكثير من هذه المجالس ، سواء في المقاهي او البيوتات ، يحج اليها من شاء من طلاب الادب او شداة الشعر ، او كبار الادباء ، لا فرق بينهم ، ولا تمييز بين بعضهم في المجلس او السمت او المكان ، او التقديم او التاخير او الغيبـة او الحضور ، فالكل سواسية الا من حيث الوضع العلمي ، او المكانة الادبية او الزيادة في مجالات الادب والعلوم والفنون .

كانت هذه الجلسة امتدادا لتلك الجلسات التي أفادت الادب ، ووجهت كثيرا من الادباء ، فقد اجتمع فيها الاساتذة : محمد ابو الفضل ابراهيم ، ومحمود ابو ريه ، والدكتور محمد صبري السوربونـي ومحمود الشرقاوي ، ومحمد عبد الغني حسن ، وروحية القليني ، ورضوان ابراهيم ، ومبارك ابراهيم ، وابراهيم المصري ، ومحمـود البدوي ، والماحـي ...

وتصدر المجلس الاستاذ فؤاد الريس والسيدة عقيلته ، ووقف الاستاذ وديع فلسطين والسيدة عقيلته في خدمة الاضياف وتحيتهم ، والترحيب بكل واحد منهم ، وتقديمه ، كما هو المتبع ، الى الحضور ، وان كان كثير منهم يعرف بعضهم بعضا بحكم الزمالـة ، او الاتجاه والمشـرب ...

وقد دارت في هذه الجلسة عدة مناقشات حول مسائل ادبية ودينية وان كان الاختلاف بين الاراء يسودها ، واظهار «الانا» طابعها ، والمرح عبيرها ، والشذى الفواح يعطر جوها ...

بدأ الاستاذ عبدالغني حسن حديثه الحلو ، بانكار نسبة كتاب : «طبائع الاستبداد» لصاحبه : عبدالرحمن الكواكبي ، فقال : ان كتاب: «طبائع الاستبداد» ليس من عمل عبدالرحمن الكواكبي ولا من صنعه ، وانما هو لاديب او عالم ايطالي ، سبق الكواكبي الى وضع نظرياته ، ونسبه الكواكبي اليه ، كما فعل السيوطي في كثير من كتبه التي نسبت اليه ، او نسبها هو الى نفسه ، بحجة انه صاحبها وواضعها ووالدهـا .

ومن العجيب ان هذا الرأي الذي قاله الاستاذ عبدالغني حسن،قد ظفر بتاييد الدكتور صبري السوربوني، فهدر كما هي عادته بكثير من الاستشهادات وافاض بجملة نكتات ، تؤيد الرأي ، وتدلل علـى موضع من الصواب ، وان كان الاستاذ محمد ابو الفضل ابراهيم قد لاذ بالصمت ، واكتفى بالسماع دون ان يبدي ملاحظة ، او يدافع عن هذه الجريمة البشعة ، التي ارتكبها عبدالرحمن الكواكبي في غفلـة من الزمن ، او استغفال للادباء والنقاد والمؤرخين ، وهو الزعيـم «الذي يستعصي على ناقد الاخلاق نقده » .

والواقع انني وقفت في حيرة شديدة ، وانا اسمع هذا الاتهـام لرجل لفت الانظار اليه بجهاده وعلمه ودفاعه ، فذهبت الى كتـاب المرحوم الدكتور احمد امين «زعماء الاصلاح في العصر الحديث» ولشد ما راعني دفاع احمد امين وانصافه لهذا الرجل اذ يقول : «لم يكـن الكواكبي يعرف لغة اوروبية،انما يعرف العربية والتركية والفارسية»!!!

« اما كتاب : «طبائع الاستبداد» فقد نشره اولا ـ مقالات فـي بعض الصحف عندما كان في مصر سنة ١٣١٨ هـ، ثم جمعها فيكتاب» .

ثم وقف احمد امين نفسه ، موقف الشك في امـر هـذه الاراء والنظريات التي ساقها الكواكبي في كتابه ، فقال : «ولا اعرف كيف وصلت اليه» وان كان الكاتب الايطالي «الفيري» الذي مات عام ١٨٠٣ وعشق الحرية ، وكره الاستبداد ، قد أثبت ما هو قريب منها فـي كتاباته ، ولكن الكواكبي هضمها وعدلها بما يناسب البيئة الشرقيـة والعقلية الاسلامية ، وزاد عليها من تجاربه وآرائه » .

غير اني اقول : ان الذي عشق الحرية وجرى وراءها وتغنى بها حبا فيها ، لا تعايشا لها ، او تقيدا فيها ، غير الذي تتوق نفسـه اليها ، ويتمنى الوصول اليها بعد المعاناة من الظلم ، والكبت ووضعه تحت المراقبة ، ومحاسبته محاسبة شديدة ، تجعله يعبر في صدق عن هذه الحرية ويسوق مختلف الحجج دفاعا عن هذه القضية التي جثم جبروتها على صدره ، وجثا على ركبتيه حيال اساليبها الملتوية :

«وقد كان الكواكبي» في كل هذا يقرأ نتاج القرائح التي كتبت في الاستبداد ، وينظر الى الدولة العثمانية في عهده ، ويستملي منهـا آراءه واحكامه » .

وقال احمد امين عن الكواكبي : «لو مكن له معرفة لغة اجنبية ، ووقف على ما وصلت اليه بحوث علم الاجتماع الحديث ، لكان له منبع فياض الى جانب غزارة فكره» .

اما الاستاذ العقاد ، فقد عاب على الكواكبي ، قصوره في تعلم لغة اجنبية ، ولو كان كذلك ، لكان كتابه او آراؤه في الاصلاح ، لا يدانيها رأي ، او يسمو اليها جهد جهيد .

ودون شك ، فقد كان الحكم على الكواكبي ، في غير موضعه او هو كبوة من الكبوات ، او محاولة للاتيان بجديد في هذه الجلسـة الماتعة ، ولكن هيهات ...

ودارت عجلة المناقشة فتكلم الاستاذ محمود ابو رية مبديا رغبته في الطلب من الاستاذ الماحي بيتين من الشعر لوضعهما على صدارة كتابه : «اضواء على السنة المحمدية» الذي يعيد طباعته هذه الايام ، فابدى الماحي استعداده لاجابة هذا الطلب ، وان كان في الواقع عسيرا بالنسبة لشاعر كالماحي ، لا يستجيب الا لداعي الانفصال او الاقتناع ، الا ان الاستاذ ابا رية ، يحب ان يكشف عن الخبايا او الخفايا التي تعيش والشعراء جنبا الى جنب ، او تصاحبهم دون ملل او ابتئاس، وهنا تدخلت الشاعرة روحية القليني في هذه المناقشة ، كانما ارادت

ان تسد على الاستاذ ابي رية باب الكلام ، او تقنعه بشاعريتها الفذة فقالت : انني أعيش بقلبي ، واصب عواطفي في كل شعري ، وان كنت القى لاذع النقدات من هذه الصراحة المقيتة التي تحسب علي في كل المجتمعات ، حتى ان كثيرات من «صويحباتها» يستبعدن ان يكون هذا الشعر لي بهذه الصورة الفاضحة الهازلة !! وان كانت الشاعرة تحرص على الدفاع عن حبها ، وتسوق الادلة في كل مجتمع او ناد على هذا الحب ، وهي صراحة تحسد عليها ، وان استبعدت انا «شخصيا» ان تكون الشاعرة روحية القليني من دعاتها ، بعد ما عرفتها عن كثب .

قال الاستاذ ابراهيم المصري ، ان روحية القليني ، شاعرة مجيدة، وعاطفة مشبوبة ، ولها طابع خاص تمتاز به، يتجلى في شعرها الغزلي، ويظهر في آخر ديوان لها ، او الديوان الذي سبقه ...

ومن حسن حظي ان جلستي كانت الى جوار الاستاذ ابي رية ، وانا احبه ، واقدر علمه وفضله ، وجهاده في سبيل تنقية الدين مما علق به من شوائب ، وما طفى على سطحه من طحالب ، فهمست في أذنه ان يسأل الاستاذ ابراهيم المصري بعد ان انضم اليه في الدفاع عن روحية الاستاذ محمود البدوي..هل قرأ ديوان روحية الاخير ، وما هي القصيدة التي أعجبته في هذا الديوان ؟

فأجاب الشيخ ابراهيم المصري اجابة مبهمة ، لانه اراد الا يكسر «نفس» روحية بعدم القراءة ..والحق ان الشاعرة فهمت ما يريد ان يقوله عمها ابراهيم المصري ، فصرفته عن الاجابة بجره الى ما يكتبه في «اخبار اليوم» حول «القلوب المعذبة » التي تسأل وابراهيم المصري، يجيب ...

ولعل القارىء يأخذه العجب ، عندما يعلم ان الدكتور صبري السوربوني ، كان اكثر الحضور تعليقا على كل ما قيل او اثير في هذه الجلسة ، وبخاصة مع الشاعرة روحية القليني ، وهي تنفس عن نفسها بهذه الكلمات التي تصبها صبا في كل مجلس او ناد ، تدخله او تدعى اليه .

ولا شك في ان هذه التعليقات التي كان يرسلها الدكتور السوربوني ، كانت مكشوفة الى حد التساهل في التعبير ، مما كنت أخشى معه ان يفلت زمام هذه الجلسة الفريدة ، ولكن اذا عرفنا ان هذا من لوازم السوربوني، بطل عجبنا ، وتقبلنا تعليقاته بصدر رحب، ونفس راضية !

ولقد كانت فرصة مواتية عند ما جلس عن يميني الاستاذ رضوان ابراهيم ، وجرنا الحديث الى الشاعر جورج صيدح ، فقد طلبت منه تزويدي بمعلومات يعرفها للكتابة عنه ضمن سلسلة اعتزمت اخراجها ، فأرسل الى الشاعر العظيم جملة قصاصات ، واحالني على عدة مراجع للاستقاء منها ، ان اردت... وكان رضوان ابراهيم مجاملا لي ، ومتزنا في ردوده علي ، وان كان لم يشارك في هذا الاجتماع برأي ، او يمسك بناصية لحديث ، فكان مستمعا هو والاستاذ مبارك ابراهيم الذي كنت انظر اليه عن بعد ، وارتقب منه بادرة ، او رأيا عن له ، او مشكلة برزت امامه من خلال هذه المناقشات ، الا انه اكتفى بالنظر، واصفى السمع ، ولم يدخل في هذه الماجريات المتشعبة ، حتى لا يقول ما يحمد له ، او يؤاخذ عليه ، كما فعل الاستاذ الشرقاوي بعدما أبدى رأيه في هجرة المسلمين الى المدينة .

على انه كان في ذهني وأنا ذاهب الى هذا الحفل ، انني سأقابل شيخا كبيرا هو الاستاذ محمد ابو الفضل ابراهيم ، الذي اخذ نفسه بتحقيق كتب التراث منذ زمن بعيد ، ولعب فيه دورا كبيرا بما اخرج من كتب كبيرة ، هي الاساس والبناء في حضارة العرب ، وهي المنبع الصافي لمن يريد الري ، والمنهل العذب ، الا انني رأيت رجلا ، قد بدوت في نظري انني اكبر منه سنا ، وقورا لا يتكلم الا حيث يأتي اليه الكلام من يمين او شمال ، فحسبه ان يجلس الى يمينه الدكتور السوربوني بعلمه الشتيت ، ونكاته البارعة ، وقفشاته المكشوفة ، فيضطر احيانا الى الرد ، او الركون الى الصمت ، او اللواذ بالحديث مع الاستاذ محمود البدوي الذي كان يجلس الى يساره قبل ان ننتقل الى مائدة الاستاذ وديع فلسطين الشهية الحافلة ..

ولا يأخذن القارىء العجيب ، اذا علم ، ان الاستاذ ابا رية ، لا ينفك ، وهذا ديدنه ، في كل مجالسه ، ان يمتلك ناصية الحديث ، ويلفت النظر بما يثيره من قضايا ادبية ، هي اولى بالبحث وأقمن بالحديث ، فأراد عندما ترك الاستاذ عبدالغني حسن مكانه في هذه الجلسة ، الى الاستاذ فؤاد الريس والسيدة عقيلته ، ان يمسك به ويوجه نظره الى كتاب اخرجته «دار المعارف» ووزعته هدية بعنوان : «لماذا نقرأ ؟» وجاء به مقال غفل من الامضاء ، به احصاء للشعراء تجاوز فيه كاتبه عن ذكر شعرائنا الذين حضروا معنا حفل الاستاذ وديع فلسطين ، اراد مداعبة او اراد مشاكسة باثارة هذا الموضوع ، وان كنت قد لمست طعنة وجهها الاستاذ ابو رية لهؤلاء الشعراء : عبدالغني حسن ومصطفى الماحي وروحية القليني ، وكان الاجدر بكاتب المقال ، ان يذكر الاستاذ عبدالغني حسن من بين الشعراء ، فهو على الاقل ، شاعر قبل ان يحمل صاحب المقال قلمه ، او يكون في عداد القوامين على الانتاج الادبي الرفيع .

وليس شك في ان هذه طعنة موجهة الى بعض شعرائنا ممن لهم باع في الشعر ، ومواقف خالدة في دنيا القريض ، وان كنت أحسب ان «شاعر الاهرام» ، لا يسكت عن هذه الاهانة التي لحقت به هو دون سواه بغض النظر عنروحية القليني او مصطفى الماحي، فهما متساهلان.

والواقع ، ان الصورة التي كانت في ذهني عن الاستاذ فؤاد الريس ، انه قد تخطى الحلقة الرابعة من عمره ، او هو يقف على الحلقة الخامسة ان لم يكن قد ضرب فيها ، فلما سعدت برؤيته ، وتقابلت معه وجها لوجه ، رأيت ان الصور كثيرا ما يعتريها الخطأ ،

نتيجة المؤثرات التي تكتنفها او تحيط بها ، فهو كاتب ذو تجارب ، واسع الثقافة ، يدير «مجلة» ، ليس من الهين ادارتها ، او من السهل قيادتها ، عليه ان يتجاوب مع مختلف الاقلام التي تسهم في هذه المجلة ، ويحكم على صلاحيتها او توجيهها دون مجاملة ، او ارضاء لشعور او وساطة ، والا افلت الزمام من يده ، ووجه بالعتاب والملام، لكن والحق يقال : رأيت الاستاذ فؤاد الريس ، وان كان في الحلقة الثالثة ـ كما قدرت ـ يوجه الجمع في ادب ، وينشر ما يريده في حذر ، ويتحدث في اطمئنان الواثق من كلامه ، او رسالته ، فهو ينظر الى المجلس بعينين صافيتين ، لا يشوبهما حقد ، ولا يكدر صفاءهما هذر او هرج ، ويلقى ما يلقيه من تعاليم تهمه في مهمته ، دون ان يستشعر الجميع الاملاء او التوجيه ، او الارادة .. عندئذ اقنعت نفسي ، بتغيير الصورة التي طبعتها في ذهني ، لمساته في «المجلة» وتوجيهاته الراشدة في كلماته ، وان كنت لم ازل اؤمن بأن هذه تجارب الستين ، لا فلتات الثلاثين او ما فوق الثلاثين ، وأمنت في الوقت نفسه ، بضرورة اللقاء ، ولو كان في دار الاستاذ وديع فلسطين الذي تعب كل التعب في جمع هذا الشمل ، وتعدى هذا التعب الى السيدة عقيلته التي كانت تمر على الضيوف بالتحية الشهية في الاطباق ، والتحية المعنوية ، في حسن اللقاء .

القاهرة — ابو طالب زيان

●

تبرعات المواطنين الى لجنة يوبيل «الاديب» في الاردن

يسر لجنة يوبيل «الاديب» الاردنية ان تشكر السادة الذين لبوا نداءها وبادروا الى التبرع تحية منهم لمجلة راقية حملت رسالة الفكر والتاريخ والادب طيلة ٢٥ عاما .وفيما يلي اسماء السادة المتبرعين والارقام بالدينار والفلس :

البنك العربي ٥٠ ، قدري طوقان ٢٥ ، امانة العاصمة ٢٥ ، شركة السجاير الاردنية ٢٥ ، محمد اديب العامري ٢٥ ، حمد الفرحان ٢٠ ، بلدية الخليل ٢٠، وزارة الاعلام ٢٠، يوسف السيد هاشم الرفاعي ١٠، فضل الدلقموني ١٠، حمدي كنعان ١٠، القيادة العامة ١٠، المطران نعمة السمعان ١٠، عبدالرحمن بشناق ١٠، محمد باجس ١٠، الشركة التجارية الصناعية ١٠، راسم الخالدي ١٠، يعقوب العودات (البدوي الملثم) ١٠، الدكتور محمد صبحي ابو غنيمة ٨ و ٤٠٠ فلس، المطران نجيب قبعين ٥، ضيف‌الله الحمود ٥، الدكتور يوسف هيكل ٥، ذوقان الهنداوي ٥، اكرم زعيتر ٥، اميل كردي ٥، حبيب الخوري ٥، عبدالقادر الصالح ٥، جميل بركات ٥، الدكتور محمود الدجاني ٥، احمد غنيم ٥، سليمان محمد الصالح ٥، رؤوف ابو جابر ٥، علي نصوح الطاهر ٥، ثابت الطاهر ٥، وصفي عنبتاوي٥، الدكتور سامي جودة ٥، امين الحسن ٥، فايز الفول ٥، محمد سليم الرشدان ٥، عيسى الناعوري ٥، سليمان موسى ٥، محمود العابدي٥، بلدية اربد ٥، بلدية بيت لحم٥، بلدية بيت ساحور ٥، بلدية اريحا٥، الدكتور نقولا زيادة ٣ و٥٣٠ فلسا ، عزت الجبالي ٣، ابو زيد ونزال ٣، لطفي ملحس ٣، راهبات الوردية ٣، ثريا حداد ٣، الدكتور وليد قمحاوي ٣، مخائيل جميعان ٢ و٥٠٠ فلس، مصطفى درويش الدباغ٢، امين درويش ٢، الدكتور احمد ابوحاكمة ٢، مدرسة الفرندز ٢، واصف كمال ٢، الدكتور محمد صدقي ملحس ٢، احسان النمر ٢، شاكر ابو حجلة ٢، يسرى صلاح ٢، يحيى حمودة ٢، شجاع الاسد ٢، اميل صافية ٢، شكري المهتدى ١، محمد عبدالكريم العباسي ١، راتب دروزة ١، فتحي قدورة ١، توفيق ابو شريف ١، خضر كمال ١، عبد الحميد الانشاصي ١، عيسى بلاطة ٥٠٠ فلس .

ومما يدعو الى اغتباط اللجنة ان تتلقى من الادباء وذوي الاريحية مزيدا من المساهمة في هذا المشروع الجليل الذي تنادت الى انجاحه البلاد العربية الشقيقة وستنشر اللجنة اسماء المتبرعين وتبرعاتهم في قوائم تالية .

القدس — جريدة «فلسطين»

●

اليوبيل الفضي لمجلة «الاديب»

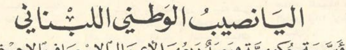
كانت مجلة «الاديب» البيروتية لصاحبها الاستاذ البير اديب اول صحيفة ادبية لبنانية اقبل عليها الادباء والمثقفون في العراق وطالعوها بلذة واهتمام ، كما انها كانت منبرا حرا لاقلامهم ، وكنت احد كتابها ومن قرائها المزمنين ولا ازال لانها المجلة العربية الوحيدة التي يلتقي على صفحاتها ادباء وشعراء العالم العربي وتصوير التيارات الفكرية والتعريف بنتاج الفكر العربي المعاصر .

وقد سلخت من عمرها الان ربع قرن (صدرت سنة ١٩٤٢) لذلك تنادى صفوة من الادباء والشعراء والمفكرين للاحتفال بيوبيل مجلة «الاديب» واسهام الدولة والمؤسسات الثقافية العامة في تنظيم هذا الاحتفال وتكريم صاحب «الاديب» .

اعتقد ان على وزارة الصحافة العراقية ونقابة الصحافة واجب الابراق لصاحب هذه المجلة بالتهنئة بهذه المناسبة لان مجلة «الاديب» ليست لصاحبها وللبنان فقط بل هي لجميع مثقفي البلاد العربية . وكانت من أوسع المجلات العربية التي تتلاقى فيها اقلام الكتاب العراقيين وشعرائهم .

انني أهنىء مجلة «الاديب» بيوبيلها هذا واتمنى لصاحبها الاستاذ البير اديب ـ مخلصا ـ كل تقدم ونجاح في جهاده الادبي .

مجلة «المكتبة» ـ بغداد — **مهدي القزاز**
رئيس تحرير مجلة « المكتبة »



مؤسسة حكومية مرصد ريعها لأعمال الاسعاف الاجتماعي

تعديلات هامة في جوائز اصداراتها

٢٠ اصدارا شعبيا	الجائزة الكبرى	٢٥٠٠٠ ل.
١٨ اصدارا شعبيا خاصا	الجائزة الكبرى	٤٠٠٠٠ ل.
٤ اصدارات سوبيستيك	الجائزة الكبرى	٥٠٠٠٠ ل.
٧ اصدارات عادية	الجائزة الكبرى	٦٠٠٠٠ ل.

ملكة جمال لبنان لعام ١٩٦٦
الانسة يولا حرب

تدفع الجوائز في المديرية
معفاة من كافة الرسوم والضرائب